الوثيقة
دورية نصف سنوية ، تصدر عن مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين

د. حبيبة ، علي « من قضايا التاريخ في البحرين » ، العدد الخامس ، السنة الثالثة ، شوال 1404هـ / يوليو 1984 ، ص 84-120

من قضايا التاريخ في البحرين

بقلم : دكتور علي حبيبة

هذه محاولة لتفسير بعض الظواهر الهامة فى تاريخ البحرين خلال العصور الاسلامية المختلفة . وهى :

١ ـ الاستجابة السريعة لدعوة الاسلام ، ودوافعها
٢ ـ ضعف حركة الارتداد عن الدين وأسبابه
٣ ـ محاولة الحرب فى بلاد الفرس ، ونتائجها
٤ ـ موقف البحرين فى عهد الخلفاء الراشدين
٥ ـ ثورة الخوارج وأهميتها
٦ ـ القرامطة ، وميولهم الاجتماعية

ونقصد بالبحرين ما كان يفهمه العرب فى تلك العهود وهى : الاقليم الممتد على ساحل الخليج العربى بين البصرة وعمان ، وهى بهذا التعريف تشمل ما يعرف فى الوقت الحاضر بالكويت والأحساء والبحرين وقطر وتتصل غربا باليمامة وشمالا بالبصرة وجنوبا بعمان .

واما دولة البحرين المعاصرة فاراضيها جزء من ذلك الكل ، واذا كانت وحدها تحظى الآن بهذه التسمية التاريخية ، فقد حدث هذا بعد ان تحددت معالم هذه المنطقة فى عصور متاخرة ، وكان ذلك قبل قيام دولة البحرين الحديثة بقيادة آل خليفة سنة ١٧٨٣ م.

***

وليس كاتب هذه الصفحات بعد ذلك الا واحدا ممن شغلهم التاريخ ، وعاشوا معه فترات طويلة ، فهو يرجو ان يكون ما يعرضه مفيدا او مقبولا عند الراغبين فى المعرفة ، والله المستعان .

الاستجابة السريعة لدعوة الاسلام ودوافعها :

لا نعرف الكثير عن تطور الاستجابة لدعوة الاسلام فى مناطق البحرين المختلفة ، وكان ادراك المراحل المتصلة بقبول هذا الدين فى هذه المواطن يكشف عما يساعد على فهم الأوضاع الدينية بها .

وكذلك لا نعرف الكثير عن الأحوال الاجتماعية التى عاشها الناس فى هذه البلاد العربية عند ظهور دعوة الاسلام ، وكان العروض الواردة فى المصادر التاريخية عن بلاد العرب الأخرى يمكن ان تشملها بدون مفارقات او اختلافات .

ولا نعرف من المؤرخين من تتبع الظواهر الدينية والاجتماعية او الاقتصادية او غيرها فى أى من المناطق العربية من بدايتها حتى نهايتها فلم يهتم الكثيرون منهم بالخيوط الداخلة فى نسيج الأحداث الكبرى ، وانما انصرف الجميع الى رواية هذه الأحداث ، او ذكر احوال من كانوا يؤدون الأدوار الرئيسية بهذه المناطق ، وحصروا جهدهم فى هذا الجانب وحده [١] .

وهكذا سارت الأمور واستقرت الاحوال ، فكان علينا اذن مسئولية البحث عن اسباب بعض الأحداث المروية عن هذه المناطق العربية الهامة ـ والآن تشيع بيننا مفاهيم ثابتة تدور حول قبول التفاعل والتأثير المباشر بين مظاهر الحياة المختلفة ، بمعنى ان الاحداث السائدة فى بيئة ما لا بد ان يؤثر بعضها فى بعض ولا بد ان يتفاعل بعضها مع بعضها الآخر ، فاذا كانت مناطق البحرين قد قبلت الاسلام واذا كانت قد استجابت لدعوته بعد عرضها فكانها بذلك خالفت الاتجاه العام فى كثير من المجتمعات العربية ومعنى ذلك ان تكون لهذه الظاهرة دوافعها واسبابها ولا بد ان الحياة فى البحرين كانت تختلف ولو من بعض جوانبها عما كان معروفا فى المناطق العربية المجاورة لها .

ولعل استقرارها النسبى دفعها الى ان تدرك بعض ما لا يعرفه غيرها فلقد عرفت هذه البلاد الحياة الرتيبة وتعودت عليها ، وكان بها رخاء يمنحها فرصة النظر المتأنى فى الامور من حولها [٢] ، ثم كانت تملك الوسائل الصالحة للاقامة مع الأمن والتفاهم الاجتماعى : تربة صالحة للزراعة ، ومياه صالحة للرى وتجارب طويلة فى استغلال البحر ومحاولات كثيرة مع التجارة الداخلية والخارجية ، مما يعنى ان الأوضاع بهذه المناطق كانت تختلف عن تلك التى كان يمارسها البدو فى الصحراء العربية [٣] ، والتى كان يعرفها كثيرون من العرب فى البلاد العربية الأخرى .

ولقد بدت العلاقات الاجتماعية فى مناطق البحرين سليمة او اقرب للتماسك والانسجام عما كان معروفا فى مناطق عربية أخرى . فالحروب القبلية كانت قليلة ، او اقل منها فى بلاد العرب الصحراوية .

والتنقل من أجل الرعى كان محدودا أو فى ادنى صوره المعهودة .

ولم تعرف مناطق البحرين الهجرات الجماعية منها أو اليها ـ وقت ظهور الاسلام وبعده ـ لانها لم تكن من مناطق الاستقطاب المعروفة ، ولم تكن كذلك من مناطق الرفض الدافعة ، وانما كانت مواطن عربية تعيش حياتها فى داخلها ، لا تجذب الآخرين نحوها ، ولا تدفع مواطنيها للبعد عنها ولا ترفض القادمين اليها ، لم تكن تسرع للشر ولم تكن تخشاه اذا فرض عليها ، وتتجه الى مطلع الشمس بتجارتها ولها مع ذلك وسائلها القليلة مع بلاد العرب القريبة منها ، قد تفد اليها قبائل عربية اذا عرفت طريقها للحياة فيها وقليلا ما كان أهلها يردون على هذه الوفادة بمثلها ، وكثيرا ما كانت تأتيها عناصر قادمة من بلاد الهند أو الفرس أو غيرها ، وقد تكثر فيها هذه العناصر حتى تغلب على النسبة المعروفة لمواطنيها ، ولكنها مع ذلك كانت تعيش الحياة العربية بمظاهرها ومعالمها ومقوماتها .

ولقد عرفت هذه المناطق الاديان السائدة فى محيطها ولكنها لم تقف ثابتة مع واحد منها لانها لم تعرف الجمود والتعصب ، ولا يزال اتساع الأفق ، والتسامح مع الناس من بعض مظاهر الحياة الراقية فى بعض ارجائها حتى اليوم [4] كانت لها صلات اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها ببلاد العراق الجنوبية عرفت عن طريقها النظم والقيم والمفاهيم المتطورة ، وعرفت مظاهر التحضر ، والعلاقات السوية ، وكان لها ايضا صلات مع جيرانها الفرس ، وعانت من علاقتها بهم فى فترات من الزمن ، وظلت تتحين الأسباب لتتخلص من بعض معاناتها أمام هؤلاء الجيران .

وعندما ادرك الكثيرون فى البحرين الحاجة للتغيير والتطور ـ وكان العالم كله يدرك هذه الحاجة ويترقبها ـ وعندما جاءتهم دعوة الاسلام استجابوا لها وتعرفوا عليها [5] ، واذا لم تعرف حواجز قوية بين اتباع الاديان الممثلة فى البحرين رغم اختلافها وتباعدها لأن الجميع عاشوا حياة متقاربة فقد كان الكثيرون لا يشعرون بأهمية كبرى لأى منها ، بخلاف الاسلام الذى وضعه دعاته عند مركز الدائرة فى حياة المستجيبين له وجعلوا له دورا فى سلوك الناس ، فبدا وكأنه دين الحياة والأمل والمستقبل ، فشق طريقه بين الجماعات ، ولم يجد امامه معارضات تعطل تقدمه وتوقف نموه ، وكان الناس قد عرفوا الكثير عن سلوك بعض دعاة الأديان الأخرى ، وبعضهم كان يعمل لحساب عناصر تعيش خارج بلاد العرب ، وبعضهم كان قد انحصر جهده فى الأمور السياسية والاقتصادية وما يقرب فيها ، وكان الاسلام لم يقابل فى البحرين قوة تعارض انتشاره وتعلن الوقوف أمامه ، لأن كل الأديان فقدت جاذبيتها فى نظر المواطنين بتلك المناطق .

ثم كان الاسلام عند عرضه على الناس فى البحرين قد عرف طريقه الى الانتصار على من عارضوه فى بلاد العرب التى نشأ فيها ، وتلك كانت فرصة انصاره فى الدعوة له فى كل مكان ولعل العالم كله كان فى نهاية مرحلة وبداية مرحلة اخرى ، أو كان أشياء كثيرة كانت فى طريقها للتغيير على أرض العرب وغيرها .

***

وسارت البحرين مع الميول الصاعدة ، وجاءتها رسل الرسول فوجدت من أهلها قبولا واستجابة ، وكان مأمولا ان تجد بها تلك الرسل مثل هذا القبول والاستجابة ، لأن الاسلام كان يتقدم بثبات فى مناطق أخرى [6] ، فاتضح ان المستقبل فى جانبه ، وانه اصبح حركة حضارية تحاول انقاذ المنطقة من التبعية والضياع ، وتحاول انقاذ العالم من التخلف والجهالة .

وفى قبول البحرين للاسلام بهذه السرعة وهذا الحسم ما يكشف عن مرونة فى التعامل وما يشير الى تطور فى المفاهيم ، وما يفيد عدم الالتزام بأى دين تعرفه الجماعات ثم تحولت تلك المنطقة الى ولاية اسلامية ، ومنذ عهد الرسول ، وكانت من المصادر الهامة للدخل فى هذا العهد [7] ، وفى العهد الذى جاء بعده ، وعرف ان مجالات الكسب فى البحرين كانت وافرة ومتاحة للولاة والباحثين عن الثراء والثروة .

ويثير الانتباه ان علاقة الرسول بأهل البحرين كانت متميزة أو تقول انها بدت علاقة حميمة ، وتشير الى ذلك كتبه ولقاءاته ، وثناؤه الجم على سكان البحرين من أهل المشرق فى بعض الروايات الواردة عنه .

فهو يطلب وفدا من البحرين ، ويحدد العدد المرغوب فيه ، ويثنى على هذا الوفد قبل ان يراه ، ويبدو سعيدا به عند اللقاء ، يستضيفه ويقرب سيده ، ويثنى عليه ، ثم يستقبل وفدا آخر سنة ٩ ـ ١٠ هـ مع زعيمه المسيحى ، فيسلم هذا الزعيم امام الرسول ، ويضمن له الرسول انه مع الحق ويقربه ويعطف عليه .

ثم هو يراسل المواطنين مع حاكمهم ، ويراسل بعض المسئولين الآخرين معهم وتكثر مراسلات الرسول للمنذر بن ساوى حاكم البحرين ، ويمنحه عطفه وتوجيهاته ويشفعه فى قومه ، ويعفو عن المذنبين من مواطنيه ، ويضمن له البقاء فى عمله ما صلحت حاله ، ويوجهه للتعامل مع غير المستجيبين له .

وكان العلاء بن الحضرمى ـ رسول الرسول لحاكم البحرين ـ على نفس المستوى من حرارة اللقاء مع المنذر بن ساوى ، فهو يخاطبه ، وكأنه كان صديقا له أو كانه على صلة وثيقة به ، فهو فى رأيه عظيم العقل ، فينيفى لمثله ان ينظر فى أمره فلا يكذب من لا يكذب ، ولا يجحب ثقته عن الموثوق به ، ويغريه بأن كل ما جاء به الاسلام من أمانى أهل الفهم ، ورغبات أصحاب الفطنة .

وبعد ذلك يلفت نظره الى عيوب المجوسية ويجد فيها ما يرفضه العرب قبل غيرهم لأنها تبيح نكاح من يستحى من نكاحه ، وتبيح أكل ما تأنفه النفوس المترفعة وكأن المنذر كان مجوسيا فوجد فيه العلاء فرصته أو لعله كان فى طريقه الى المجوسية المرفوضة أو لعل الاتجاه الغالب بالمنطقة كان يميل الى مرضاة انصارها والتغافل عن عيوبها ويرد عليه المنذر بما يناسب حاله ، فيثنى على دينه ويقول ان شيئا ما لا يمنعه من قبوله .

***

لقد عرض الاسلام على الناس فى البحرين فاستجاب له اكثرهم ، أو استجاب له العرب منهم وكان هذا العرض فى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة ، مما يعطى لتلك الاستجابة قيمة ، لأنها كانت قبل فتح مكة ، وقبل ان تتكشف الأحداث فى بلاد العرب .

وتشير روايات المؤرخين الى أن بوادر القبول لدعوة الاسلام فى البحرين كانت مبكرة ، وكأن ذلك كان سلوكا عرف عن تلك المنطقة قبل غيرها ، اما سائر العرب فقد قبلوا الاسلام بعد الفتح فى السنة الثامنة من الهجرة ثم توالت وفودهم على الرسول فى تلك السنة وبعدها لتعلن الولاء له وقبول دينه .

ومن المعروف ان كتب الرسول لحكام المناطق القريبة من بيئة الاسلام الأولى كانت

فى السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية وقبل ان ستة انفار من أصحاب الرسول خرجوا برسالته فى يوم واحد فى بداية المحرم من السنة السابعة هـ ، وكان منهم العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى العبدى صاحب البحرين .

وكان الرسول بهذا الصلح قد ضمن المستقبل لجانبه ، وكسب اليد العليا على خصومه ، فأسرعت اليه بوادر النصر بعد ان الزم هؤلاء الخصوم بالسكوت عنه والامتناع عن حربه ، أو بعد ان قبلوا من جانبهم بالالتزام بمظاهر العجز أمامه فلم يكن غريبا اذن ان يدرك الاذكياء فى بلاد العرب بالبحرين ان المستقبل مع الاسلام دون غيره فيسرعوا اليه قبل مرور الزمن ، وهذا يشير الى ان الاسلام عرف طريقه للبحرين قبل كثير من المناطق العربية الاخرى ، وان البحرين عرفت الاسلام قبل غيرها من بعض بلاد العرب .

***

هذه هى رواية المؤرخين عن قبول البحرين لدعوة الاسلام ، وقد لا تكون هذه الرواية كافية لاقناع الباحثين عن دوافع العرب للتخلى عن الأديان المعروفة فى بيئتهم وبعض هذه الأديان كان متواترا عبر القرون ثم كان هناك ما يدفع الى قبول بعضها الآخر وبعد ذلك توجد تساؤلات حول قبول العرب دعوة الاسلام ، وثباتهم معه والتزامهم به رغم ما كان يطلبه من تضحيات كانت الحياة نفسها بعضا منها .

وقد تبدو الاجابة على مثل هذه التساؤلات فى القول بالقناعة الثابتة بأفكار عامة تدور حول العقيدة الدينية فى بلاد العرب قبل ظهور دعوة الاسلام ومنها :

(١) لم يكن التدين فى كل بلاد العرب عند المستوى المرغوب فيه عند الدعاة للاديان طول الزمن ، فلم يكن العربى المنطلق فى الاجواء الفسيحة حوله يواجه العقيدة الدينية أو يقف أمامها ، ولم تكن هى بدورها تواجهه وتكيف سلوكه وتصرفاته ولم يكن يدرك لها تأثيرا كبيرا على حياته فلم يعرف نظما دينية ثابتة يقف عندها ولا يخرج عليها ، أو يلتزم بها ويتأثر بها لأهميتها وكان كذلك شخصا واقعيا يدرك الأمور ويلاحظها فاذا نجح فالنجاح عنده لأسباب تتصل بكفاءته وتفوقه ، واذا فشل كانت المسئولية فى جانبه وحده فهو يؤمن بجهده ويعتز بكفاءته ، وقد يلوم نفسه اذا فشل ولكنه لا يأسى على هذا الفشل مهما كانت اسبابه .

(٢) كان الله مذكورا على السنة العرب ومعروفا فى قلوبهم ، يذكره القائل فى شعره ويعلن عن وجوده امام غيره ، غير ان هذه المعرفة المؤكدة لم تؤد فى بلاد العرب الى نتائج حاسمة لأن احدا لم يكن يتعامل مع الناس على هدى من هذه المعرفة ، ولم يكن احد يتوقى القبيح لأنه لا يرضى الله الذى يعترف بوجوده ، ولم يكن هناك احد يتقرب الى الله طمعا فى شىء عنده ، ولا خوفا من شىء يدفع الى غضبه ، فالله موجود حقا غير ان الرجاء فيه يقل الى حد العدم ، والخوف منه قليل ايضا ، الرجاء العاجل فيه غير واضح أو غير ثابت ، والخوف العاجل منه غير مستقر فى مكانه فى القلب واما الأمل فيما يأتى بعد الموت فلم يكن واردا أو مقبولا ، وكذلك كان الخوف مما يكون بعد الموت فالموت عند العرب كان يعنى نهاية الحياة والاحياء وليس بعده شىء تتعلق به الأفهام وتقبله العقول .

(٣) لا تبنى العلاقات بين الأفراد والجماعات على أسس دينية ، ولا على مفهوم الوحدة فى العقيدة ، ولم تكن كذلك تبنى على اساس المخالفة فى الدين لانه ليس من عوامل الوحدة والانسجام والتقارب كما لم يكن من عوامل الشقاق والفرقة والخلافات ، فلم تحدث حروب بين العرب باسم الدين ولم تحدث بينهم احلاف باسم الدين كذلك ، وانما كانت الحروب كلها او جلها باسم المنافسات المعيشية أو باسم المزاعم المتصلة بالشرف والكرامة والاباء والعزة وما يشبه ذلك .

(٤) كانت الوثنية فى بلاد العرب خامدة أو عاجزة ليس لها انصار يفهمونها ويعيشون من أجلها ، غير مقبولة عن قناعة وغير مرفوضة عن يأس فى الوقت نفسه ولا يمكن التضحية بها أو التضحية فى سبيلها ، فهى ميراث يندحر من الماضى تتجمد عنده المشاعر ، ولا تبحث فيه العقول ، واذا كانت تراثا عن السابقين فعلى اللاحقين الحفاظ على هذا التراث ما وسعتهم الحيلة وليس مهما بعد ذلك ان يكون ذلك التراث مقنعا أو مفيدا ، وكل الدراسات حول الأديان تعتبر ترفا لا يرغب فيها الكثيرون فى البيئة ، وقد لا يستطيعونها ، وتكتسب الأديان عادة بالوراثة لا بالدراسة [٨] ، ولا يشغل أهلها أنفسهم بالنظر فيها ، والمقارنة بينها وبين غيرها .

(٥) كان هناك قلق حول الوثنية فى بلاد العرب اعلن عنه أفراد زادت عندهم الحساسية وارتفعت الشكوك فى قلوبهم ولكن جهودهم لم تكن كافية لاثارة رفض هام ، ولم يكن تأثيره فيمن حولهم قويا ، اذ كانوا اقلية غير منسجمة ، تعمل فى أجواء مغلقة ، وتدعى ما تقدر على الوفاء به ، عرف بعضهم فى مكة حيث بعض أثار دين ابراهيم المفقود فى أرض العرب ، وعرف بعضهم فى المدينة لتأثرها باليهود واليهودية ، وعرف بعضهم فى البحرين لتفتح العقول بها ، وكانت من المناطق التى تزاحمت فيها الأديان .

وعندما اعلن الحنفاء عن رفضهم للوثنية العربية لم يستمع لهم أحد وضاعت صيحاتهم الخافتة فى دنيا صاخبة ، وكانوا يسلكون فى تعاملهم مع الآخرين طريق الحياة كما يعرفها الوثنيون وبذلك انعدمت الفروق بين الرافضين للوثنية والساكتين عنها .

(٦) كانت آلهة العرب كثيرة تختلف أهميتها والدعاوى من حولها ، بعضها مشهور يعرفه الكثيرون وينسجون حوله المزاعم وبعضها مغمور لا يكاد يعرفه أحد ، ولكنها فى جملتها كانت تتحد فى الهدف المقصود منها وهى انها تقرب الناس من الله وبعد ذلك لا يدرى احد معنى هذا القرب أو أهميته .

(٧) ازداد الاعلان عن التمسك بالوثنية فى الاوساط العربية المتطورة ، لا بدافع الايمان بها وانما بدافع التأثير فى الناس ، وهو اعلان كاذب أو مغرض ، ولم يكن الهدف منه الا محاولة الحصول على فوائد عاجلة يسعى الناس اليها عادة بوسائلهم ، وقد يكون هناك من الايمان أو القبول بهذه الديانة ، بمعنى استقرارها فى القلوب الراغبة فى الحماية من الاخطار المحيطة وكانت تشبه فى هذه الحال وسائل الأمن المطلوبة للعاجزين عن امتلاك القوة عند الحاجة اليها .

(٨) ثم كانت المسيحية موجودة فى مراكز ثابتة فى بلاد العرب كلها والبحرين منها وكانت تشق طريقها لاثارة انتباه الجماهير اليها ، ولم يمنع من انتصارها الا عجز وسائل القائمين بالدعوة لها بين العرب .

(٩) وكانت اليهودية كذلك معروفة فى مراكز ثابتة فى بلاد العرب ، وكان يمثلها جماعات كانت تنشط دائما لاكتساب الثروة ، وبقيت تلك العقيدة مجمدة ، يربط اصحابها بينها وبين قوميتهم الاسرائيلية ، وربما لم يكن اليهود يرفضون ان يكون

غيرهم يهوديا مثلهم غير انهم لم يبذلوا من الجهد ما يكفى لكسب الكثير الى جانبهم .

***

لم تكن بلاد العرب ومنها البحرين مغلقة لحساب دين تعرفه ، حتى ولو كان لواحد من هذه الاديان وهى الوثنية - اغلبية عددية [٩] ، وانما كانت كل الأديان ممثلة فيها ، وهذا يعنى ان اى سلطة فى بلاد العرب لم تكن تستطيع القول بحقها فى حماية الدين الغالب على اتباعها [١٠] .

ولقد عرفت بلاد العرب جملة الأديان التى عرفتها المناطق المجاورة لها فدين ابراهيم وقد على بلاد العرب [١١] ، وكذلك وفدت عليها الوثنية بعده من بلاد الشام وهاجر اليها اليهود مضطرين أو مختارين بحثا عن فرص الثراء وما وتهيأت لدعاة الأديان مناسبات النجاح فى بلاد العرب بسبب ضعف الوثنية بها ، ولشيوع التسامح فى البيئة ، وعدم وجود سلطات رافضة . ولم يكن فهم العربى لدينه يزيد على انه من بعض التقاليد المتحدرة اليه مع الزمن . واما اهميته فى ذاتها ، وفائدته له فهو لا يبحث عنها ، ولا يقف عندها ، ولا يشغله ان يكون الناس على دينه ، او على الضد منه ، لان الدين فى جملته لم يكن أحد شواغله .

وتعاملت جميع الأديان فيما بينها فى بلاد العرب على هذا المستوى [١٢] ، مع التسامح والرغبة فى التعاون ، والمعاشرة بالحسنى ، وعدم اللجوء للمناظرات والمقارنات .

ولقد جاءت المسيحية هى الاخرى الى بلاد العرب، وكسبت من اهلها انصارا اقوياء، فكانت هناك دولة مسيحية للعرب الغساسنة فى بلاد الشام، وقيل ان بعض ملوك هذه الدولة كانوا من رجال الدين المسيحي، او كانوا يمثلون دور البطارقة فى مجتمعاتهم[١٣] ، فاندفعوا مع الخصومات المذهبية الدائرة بين المسيحيين الى نهايتها، وكانوا ينصرون مذهبا مسيحيا على مذهب مسيحي آخر وتسربت المسيحية الى دولة العرب اللخميين بالعراق، فكانت هناك كنائس فى قصور بعض الملوك لنسائهم المسيحيات، وقيل ان الكنائس هناك كانت تقوم بدور ثقافي هام، ولم تكن ترفض قبول الطلبة من جميع الأديان وكانت هناك معابد مسيحية على الطرق المتشعبة فى بلاد العرب. ثم كانت مواطن المسيحيين تلقى على العرب عند تجمعاتهم الموسمية[١٤]، وعرفت قبائل عربية انتشرت فيها المسيحية، ورغم ذلك كله ظلت وسائل المسيحيين للدعوة لدينهم عاجزة عن الوصول لمراحل الانتصار الاخيرة فى بلاد العرب[١٥] ، واستمرت بطيئة متوانية فى هذه البلاد، وحاول العاملون من اجلها استغلال عامل الزمن لصالحها وسارو فى طريق رتيب بغير حيوية، وكانوا يرتبطون بنفوذ الدول المسيحية وبالسياسات الاجنبية ولعل ذلك كان من بعض اسباب النفور منهم والانصراف عنهم.

***

لم تكن مهمة العرب اذن دراسة هذه الاديان لادراك مدى صلاحيتها للحياة فى اوساطهم، فلم تحدث هذه الدراسة، وما كان لها ان تحدث فى تلك الحال، وانما بقي كل شيء فى مكانه على ارض العرب وثنية خامدة اوراكدة، ويهود يمارسون وسائلهم الانانية، ومسيحيون يعيشون مع السلبية[١٦].

وعرفت البحرين هذه الاديان جميعها، كما عرفتها بلاد العرب الاخرى، فكان نجاح اليهودية بها محدودا او منعدما، لان ممثليها كانت لهم وسائل منفرة وعرفهم الناس جماعات مستغلة تشم رائحة الدسم من **مكان** بعيد، وكان فى البحرين بعض اليهود **من** العرب الاسرائيليين وفدوا عليها منذ **انهزام** اليهودية فى بلاد اليمن امام الاحباش **المتعصبين** سنة ٥٢٥م، لأن البحرين بدت **بعيدة** عن سلطة الاحباش المندفعين بالهوى **للقضاء** على خصومهم اليهود.

واما المسيحية فى البحرين فقد كان هناك **ما يخدم قضيتها** اذ كانت مؤيدة بعناصر **اجنبية قوية**، وكان لها انصار يتحمسون **لانتصارها**، ويشعرون باشراقات أمل فى **جانبها**، لان نسائم انتصاراتها كانت تصل **البحرين** من بلاد العرب القريبة منها واذا **ارتبطت** البحرين لفترات من التاريخ بدولة **العرب** المناذرة بالحيرة فقد اخذت المسيحية **طريقها اليهم**، ومن داخل قصور الملوك **انفسهم**، ومن ثم طرقت المسيحية الابواب فى **البحرين** بعنف وثقة، فتمسح بها بعض **العرب**، وتمسحت بها بعض القبائل الشهيرة **ملل بكر** وتغلب وعبد القيس، فقيل ان جملة **من افراد** هذه القبائل كانت اقرب للمسيحية **من غيرها**، وعرفت هذه القبائل المسيحية عن **طريق** الانتشار البطيء وبعوامل الزمن، **وعرف** من وسائل الدعاة للمسيحية انهم لم **يهتموا** بتمايز انصارهم عن غيرهم من اتباع **الاديان** الاخرى، فلم تكن هناك فروق مميزة **للسلوك** الاجتماعي بين المسيحيين وغيرهم **من** الوثنيين العرب.

وكان حاكم البحرين فى بداية عهد **الاسلام** - وهو المنذر بن ساوى[١٧] **مسيحيا** وكذلك كان الجارود زعيم بني عبد **القيس**، ولكليهما دور كبير فى خدمة الاسلام **بعد** الرضا به.

وساد بالمنطقة مذهب النساطرة المعروف **فى** بلاد الشام، وعرفت بها الكنائس المسيحية، وانتشر رجال الدين المسيحيون فى البحرين، واشتهرت اسماء بعض القساوسة، وملكوا الأحواء من حولهم

ولعلهم كانوا يحاولون سد الطريق امام المجوسية الايرانية، اذ كان العداء والمنافسات قوية ومعروفة بين ممثلي المجوسية والمسيحية فى ذلك الزمن، غير ان الصراعات العسكرية الطويلة المتبادلة بين الطرفين لم تكن لأسباب دينية، ولم يكن للدين عند الجانبين اثر فيها، لأن الفرس كانوا ابعد الناس عن القتال باسم دينهم، لأن المجوسية كانت فى رأيهم نوعا من الديانات القومية القديمة[١٨]، فلم يتحمسوا لقبول الآخرين لها ولم يغضبوا من انتشار المسيحية فى المناطق العربية القريبة من بلادهم، الا اذا اقترن هذا الانتشار بالتبعية السياسية للدولة البيزنطية المعادية[١٩].

لقد كانت الحروب بين الفرس والروم لأسباب سياسية واقتصادية، وكانت الخصومة بينهم طويلة وعارمة حتى اقام كل منهم لنفسه دولة حاجزة تؤدي دور مراكز المراقبة الامامية ايام الحروب، ففي جانب الروم قامت دولة الغساسنة بالشام وفي جانب الفرس قامت دولة المناذرة بالعراق، وكلتا الدولتين العربيتين كانتا تؤديان دور الحراس لحساب هؤلاء الأقوياء، وبينما كان الروم يتصيدون انفسهم حراسا للمسيحية فى العالم، ويهتمون بنشرها فى كل مكان كان الفرس لا يقومون بدور مماثل لخدمة المجوسية، رغم انها كانت تواجه صعوبات من داخلها، حتى لقد اتخذت الخلافات حولها صورة التشكيك فى صلاحيتها فى وقت كان فيه المسيحيون يختلفون فيما بينهم من اجل الاهتداء لرأى سليم او مقبول حول طبيعة المسيح المزدوجة.

ولذلك انتشر الدعاة للمسيحية حتى فى المناطق الخاضعة لنفوذ الفرس وبقيت المجوسية بدون دعاة حتى فى بلاد الفرس نفسها[٢٠]

ورغم ذلك عرفت المجوسية فى مناطق

البحرين العربية. وكانت ممثلة في جماعة من اهلها ودان بها بعض ذوى النفوذ من العرب، وكان منهم رؤساء من بني تميم ولهم صلة بحاكم البحرين[٢١]. في ذلك التاريخ وكان هذه الاسرة العربية الحاكمة او بعض رجالها ـ قد حاولت القرب من شاهات الفرس عن طريق الاشتراك في العقيدة المجوسية. واذا لم تكن هذه المحاولة مثيرة لاهتمام ملوك الفرس، فانها لم تكن كذلك عنوانا على حسن النية، او كانت محاولة للترضية والزلفى. واذا قيل ان نظام الزواج عند الفرس لم يكن يناسب ذوق العرب المترفعين عن الاتصال بالمحارم، فلا شك ان هذا القول نابع من المفاهيم الاسلامية الرافضة لهذا السلوك والا فان الذوق البشري قد تختلف احواله لاسباب كثيرة، والمعروف ان الاديان تكيف اذواق اتباعها وتوجهها للقبول مبادئها، وعندها يصبح المرء ماجورا عن النظر فيما وراء هذه المبادىء.

ثم تبقى بعد ذلك حقيقة ثابتة وهي ان هؤلاء القادة العرب اذا كان بعضهم قد تزوج من ابنته او اخته، كما كان يبيحه له دينه، فلا شك ان هذه التجربة المثيرة لم تكن في صالحه، واذا كانت قد قربته من القيادات الايرانية فانها في الوقت نفسه قد ابعدته عن نظرائه العرب الراغبين عن تلك المحاولة، والمعروف انها لم تدفع احدا الى تقليدها او قبولها او الرضى بها.

***

لم تقف اهتمامات العرب اذن امام دين واحد في بيئتهم، ولم تثر انتباههم اية جاذبية[٢٢]، في اى من الاديان المعروضة امامهم. ولذلك استمروا راغبين عن تغيير الوثنية المتوارثة حتى ولو لم يكن لهذه الوثنية نفسها جاذبية خاصة تدفع الى الاستمساك بها سوى انها تراث عرفته وتوارثته الاجيال.

ولم يكن ذلك لسبب في طبيعة العرب كأمة لها عقليتها وفهمها ومزاجها، وانما كان ذلك لوجود فساد عام[٢٣]، عرف عن سلوك كل الدعاة للاديان في بلاد العرب ولوجود نقص في الوسائل المؤدية لانجاح اى من هذه الاديان، ولم يكن العرب من جانبهم ـ وكذلك سائر الامم في عصرهم ـ على استعداد للوقوف عند البحوث النظرية المتصلة بالعقائد الدينية، اذ كانت الجهالة عامة ـ في بلاد العرب وغيرها وبنسب متفاوتة ـ ولما حاولت الاديان تعطيل هذه الجهالة او الحد من انتشارها، وان ترشد الناس الى الوضع الأحسن، ما كان من وسائلها الاقناع بالمقارنات النظرية او المناقشات الفلسفية، وانما كانت تحاول جذب الاولياء بمغريات مقبولة تثير اهتماماتهم العاجلة او الآجلة.

ومن الصحيح ان احدا لا يدري كيف اقتنع العرب بوثنيتهم السائدة[٢٤]، وربما لم يكن هناك شيء من القناعة بها، وان ما عرف عنها لم يكن غير نوع من الوقوف عندها او الجمود عليها، وعدم الميل للنظر فيها، ثم بعد ان اصبحت ثابتة في البيئة الملتزمة، او المغلقة كان من اللازم للاوفياء ان يبقوا على الأوضاع السائدة كما تعارفت عليها الجماعة، وليس في ذلك شيء من الغباء او عدم الادراك بقدر ما فيه من الانصراف عن التورط في التبعية لبعض الأديان الوافدة او المشبوهة، بينما المعروف في الوقت نفسه ان احدا لم يجد عند دعاتها الكثير مما يخالف السلوك السائد بين الجماعات الساعية لممارسة الحياة بالوسائل المتعارف عليها.

ولقد ارتبطت بعض الاديان المعروفة في بلاد العرب بصلات قوية مع مصادر اجنبية خارج بلاد العرب ولم تكن واحدة من القوى الداعية لهذه الاديان مخلصة في نشر دعوتها مثل اخلاصها للاستفادة من انصارها، فكانت الاهداف السياسية والاغراض الاقتصادية والمنافسات الدولية تواكب محاولات الدعاية لهذه الأديان، واذا لم يكن العرب جميعا اذكياء ـ وليس في كل الدنيا شعب يوصف بالذكاء، وشعب آخر يوصف بضد ذلك ـ فان نسبة الذكاء فيهم كانت راجحة او غالبة ومن يعرف تاريخهم، وشيئا من نتائج قرائحهم في الأعمال الأدبية وغيرها يدرك حدة الذكاء عندهم، وهذا يعني انهم كانوا يدركون الكثير مما يحيط بهم حول الأديان وغيرها.

او نقول مع الوضوح والصراحة ان المسيحية كانت هي الدين الذي اخلص دعاته في العمل من اجله ولكن رغم هذا الاخلاص فقد فشل هؤلاء الدعاة الطريق الى الوسائل الكفيلة بانجاح هذه العقيدة في مثل الاحوال السائدة في بلاد العرب ولهذا السبب وغيره استمرت المسيحية قرونا طويلة[٢٥] عاجزة عن الانتصار في بلاد العرب[٢٦].

وكأننا نقول اخيرا ان العرب في البحرين وغيرها وجدوا الجاذبية الحقيقية في الاسلام دون غيره من الأديان، لأنه بدأ حركة اصلاح قوية من اجل التغيير الى الأحسن، ثم كان حركة نابعة من بلاد العرب نفسها، لا تعرف التبعية، ولا تؤمن بالارتباط مع اية قوة، تدعو الى الغايات المرغوب فيها بطريقة تتناسب مع السلوك السائد في المنطقة العربية.

لقد كان الاسلام اذن دفعة حضارية فتحت امام الراغبين مجال العمل للمستقبل، وقام على شئونه رجال فيهم القدوة والكفاءة، وهذه الرغبة في اثبات الوجود ولو بالقوة والتضحية عند الضرورة، يخاصمون الفساد ويسعون للقضاء عليه، لا يعرفون مسايرة الآخرين على حساب مستقبلهم، يسرعون نحو التغيير، ويسابقون الزمن، يسمحون للمخالفين بالحياة مع الحرية مع الارتباط بنظام متفق عليه، وكان هذا الاتجاه مسايرا لفلسفة الحياة عند العرب، او تقول انه كان فهما متطورا لفلسفة الحياة كما يريدها الأحياء من البشر طول الزمن.

ولا نقول مع ذلك ان المواطنين العرب في البحرين ادركوا هذه المفاهيم قبل غيرهم او انهم ادركوها بوضوح ـ كما ندركها ـ نحن اليوم بعد تطاول القرون والا كانوا يمثلون مستويات عقلية تفوق المستويات السائدة في الأوساط العربية الأخرى. وانما نقول انهم باسراعهم نحو قبول الاسلام ـ كما تشير الى ذلك تقارير المؤرخين الموثوق فيهم ـ كانوا اقرب لهذا الفهم من غيرهم.

ولا شك ان قبول الناس في البحرين لدعوة الاسلام بعد عرضها يشير الى شيء لم يكن معروفا في مناطق عربية اخرى، ولعل من ذلك الرغبة في الارتفاع بالحياة والوصول بها نحو الأفضل، ولعل من ذلك ايضا الاحساس بالوجود، والاعتراف بالنفس، والأمل في التحرر من المظالم، والبعد عن التبعية للآخرين.

لقد بدأ الاسلام فتيا يدعو الى الاسراع نحوه، ورغم انه كان يطلب من انصاره الكثير من التضحيات الا انه كان يعطي في مقابلها ما يزيد عليها، ومن ذلك السيادة في الدنيا، والعزة الفردية والجماعية، والوجود الصحيح مع الحياة البشرية، ثم هو يقول بحياة اخرى قد تكون اسمى من ذلك للعاملين من اجله[٢٧].

ويشار مع ذلك الى ان البحرين عاشت مع الاديان وعرفت عن بعضها ما لم تعرفه مناطق عربية اخرى، ولقد بدت بعض المناطق وكأنها اوشكت ان تصبح مغلقة لحساب دين واحد، او ان تسود فيها سلطة احد الاديان دون غيره، اما مناطق البحرين فقد عرفت عن قرب ـ الوثنية العربية،

والمجوسية الايرانية، والمسيحية الدولية، واليهودية الهاربة، والاسبذية المحلية[٢٨]، ولا شك انها عرفت ايضا الكثير من اديان الهند الكبرى، لانها كانت منطقة احتكاك اممية، تعاملت مع العالم وتعرفت عليه.

الردة في البحرين

وبعد قبول الاسلام والتعرف عليه في البحرين، أسرعت الوفود العربية ـ عام الوفود ـ الى المدينة لتعلن أمام الرسول الرضا بدينه، والولاء له، وكان منها وفد من البحرين برئاسة عبدالله بن عوف الاشج[٢٩]، وربما كان من رغبات هذا الوفد ان يشبع حاجات كامنة في قلوب افراده، وان يستجيب لعوارض طارئة في وقتها، فعالج الرسول احوال هذا الوفد بحكمته المعهودة، وفتح له قلبه، وزوده بنصائحه ومكارمه، فرجع اعضاء الوفد من عنده راضين عنه، واعين مقاصده.

ثم ذهب وفد آخر من البحرين الى المدينة في السنة العاشرة من الهجرة برئاسة الجارود بن بشر بن عمرو بن المعلى[٣٠] وكان مسيحيا فأسلم، وأكد له الرسول انه اصبح مع الحق بعد اسلامه، وسارت الامور في البحرين بعد ذلك الى نهايتها، حتى مات الرسول. ومات كذلك حاكم البحرين المنذر بن ساوى في وقت قريب من وفاته سنة ١١هـ، فارتدت بلاد العرب كلها او اكثرها كما تذكر الرواية، وعرفت الردة عن الدين في مناطق البحرين بدورها.

ومع ان قيادة المرتدين في البحرين لم تكن على دراية بالاوضاع من حولها، ولم يكن لها من القوة ما تستطيع به ان تقوم بالدور الذي مثلته الزعامات المرتدة في المناطق العربية الاخرى، الا ان قصر الفترة التي اعتنق الناس الاسلام فيها لم يساعد على استقراره وثباته وكانت هناك اديان اخرى تعيش في المنطقة مع اهدافها ورغباتها، ولها انصار يدركون خطر الاسلام على وجودها، فاذا لم يسهموا مع المرتدين في الصراع المعلن ضد المسلمين فانهم مع ذلك قاموا بدور معارض، لاذاعة الشر والتحريض على المقاومة.

كانت هناك اذن سرعة ملاحظة في الاستجابة للاسلام في البحرين تدل على عدم الولاء لغيره، وكانت هناك ايضا سرعة في رفضه تدل على عدم الاستقرار عليه والثبات معه، وجاءت عوامل كثيرة من داخل البيئة لم تكن لها آثار ايجابية قوية ولم تكن مع ذلك في جانب السلبية العاجزة.

ولذلك استمر الاسلام في البحرين ـ بعد وفاة الرسول ـ في حاجة لكي تثبت دعائمه، وتنمو جذوره، فجاء دور اصحاب الرسول ليحققوا هذه الغاية، وكانوا عند مستوى التحدي المفروض عليهم، فاندفعوا مع العزم الثابت لوضع الأمور في مكانها، وادركوا ضرورة العمل السريع لالزام الناس بالرجوع عن الخطأ، وواجهتهم في البحرين معارضات غير مؤسية، وان لم تكن في الوقت نفسه ضعيفة أو متخاذلة، وأصبح هناك طرفان يواجه أحدهما الآخر: طرف يرى ضرورة الانتصار للدين وفرضه على من خرجوا عليه، وطرف آخر يحاول التجربة بالرفض والانكار بعد ان اصبح هذا الاتجاه ظاهرة عامة تسود بلاد العرب كلها، وبعد ان عرفت له زعامات كثيرة مستأسدة.

وجاء العلاء بن الحضرمي الى البحرين[٣١] مرة اخرى ليقود المسلمين في حربهم ضد المرتدين، ولحقت به نجدات الدولة، وناصرته عناصر متحمسة من البحرين نفسها، فحارب وانتصر بعد ان دفع عدد من جيشه ضريبة الحياة بالتضحية.

***

وهذه ايضا رواية التاريخ حول حادثة

الردة في البحرين بعد وفاة الرسول وقد تبدو الآن غير كافية لشرح ظاهرة الارتداد في البحرين بعد ان كسبت لنفسها امتيازا ونفوذا على كثير من المناطق العربية الأخرى بأسراعها نحو الاسلام بدون عنف.

ونقول للبيان والتوضيح انه يفهم من روايات المؤرخين ان ثلاث مدن عربية بقيت ثابتة على الاسلام وحدها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان لهذه المدن الثلاث أوضاعها الدافعة لمثل هذا الثبات حتى النهاية، واما غيرها من المواطن العربية فلها قصة اخرى.

فقد كانت المدينة دار الاسلام، عرفته وعرفها، والتزمت بنصرته أمام التاريخ وعاش فيها وعاشت معه وتحدت به دنيا العرب وتحدى بها الاسلام كل خصومه ومعارضيه، وقضى بها الرسول اخصب فترات حياته، وكسب مع اهلها اعظم انتصاراته، فما كان ممكنا عن الاسلام ابدا ان يرتد اهله او يخضعهم عن الاسلام ابدا.

وعرفت مكة الاسلام قبل المدينة، وكان لها معه دور طويل، فقد قاومته بعنف ودافعها عن نفسه بقوة، وتحدته وقبل التحدي امامها، وصبر عليها حتى انتصر بعد سلسلة من المحاولات المذكورة في كتب كثيرة، دون ان تكون لهذه المحاولات روح الاتجاه نحو تحطيم العلاقات بين الجانبين، ثم جاءت النهاية لصالح الدعوة وصاحبها فقبل اهلها الدين الجديد عن قناعة وادراك، ووجدوا فيه حاضرهم ومستقبلهم وحياتهم معا، وأعفاهم الرسول من مسئوليات الخصومات القديمة وتبعاتها، وكأنما ولدوا من جديد بعد هزيمتهم أمامه، فاستأنفوا معه نشاطا جديدا، وتفتحت أمامهم مجالات العمل قادة في كل مكان وموجهين وعاملين حسب كفاءتهم، فلم يعد ممكنا ولا مقبولا ان تنقلب حياتهم الى الاسوأ بعد هذه القناعة والرضا والمثوبة والأمل.

ثم كانت الطائف ثالثة تلك المدن الثابتة مع الاسلام حتى النهاية ـ تعيش كذلك مع مثل هذه المفاهيم، ولعل تأثرها بما حولها دفعها لهذا الصمود المحفود، فزرع الايمان في هذه المناطق وحدها وجد الوقت الكافي لتأكيده وتثبيته وتأصيله، واما بلاد العرب الاخرى فكانت محاطة بأجواء تخالف ذلك كلا او بعضا، فلقد راقبت الأحداث حتى تكشفت الصورة أمام الناس، فأصبح أحد الطرفين غالبا والآخر مغلوبا، وكان بعضها يعتبر الصراع السائد بين المسلمين والقرشيين نوعا من الخصومة بين رجل وقومه، فوقف يتفرج على الأحداث من بعيد، أو اتبع من الوسائل ما يبعده عن المشاركة فيما لا يعنيه.

وبعد ان انتهت الخصومة في وقتها بشيء من التضحية، او بشيء من العنف المعهود في الحروب العربية أسرعت القبائل المترددة للاعلان عن قبول التبعية وبطريقة جماهيرية شاملة، وكان زعماؤها يرون مصالحهم في القول بالولاء لصاحب الدعوة حتى ولو لم يكن لهذا القول مضمون، ويأتي بعدهم دور اتباعهم بالتبعية، وتندفع بعد ذلك الوفود العربية معلنة ارتباطها بالحدث الجديد وتتجول وفود المسلمين من جانبها لتعقد بالدين وتشرح مبادئه، وكأنما انتهت الاحداث عند هذه النهاية.

ولكن قصر المدة بين الاعلان عن قبول الدين وبين وفاة الرسول هيأت المناسبة لرفض الدعوة بنفس الحماس الذي قبلت به في البداية، وامتلأت بلاد العرب بزعامات طموحة ترى حياتها ومستقبلها في تسنم مجتمعاتها القبلية، وتوجهها لتحقيق غاياتها، فأخذت تضرب على أوتار العصبية القبلية وتنادي ببعض الاعتراضات

الرافضة لبعض مبادىء الدين الجديد[٣٢] .

فالارتداد لم يكن اذن امرا غريبا ، كما ان الاعلان عن قبول الدين لم يكن كذلك امرا غريبا ، وبقاء ثلاثة تجمعات عربية مع الايمان بالدين حتى النهاية ليس امرا غريبا ايضا واما الغريب حقا فهو ان تبقى بعض بلاد العرب البعيدة عن مراكز الايمان بالحبيرين عن ايمانها بنصيحة واحد من رجالها[٣٣] ، او نقول انها انقسمت حول قضية الايمان الى جماعتين متعاديتين ، غلب على واحدة منها الوعي والادراك والرغبة في الخير بعد التعرف عليه ، وغلب على الاخرى الرعنة في الانطلاق من قيود التبعية لدين من الاديان .

***

لم تكن اذن حركة الارتداد عن الاسلام في المحرين عنيفة او شاملة ، ولم تظهر من بين اهلها زعامات قوية ترفض الدين او تدعي النبوة وانما وجدت بها عناصر تائهة تجمعت حول زعيم بغير كفاءة يسمى المطلم بن ضبيعة ، فكان عليه ان يواجه منذ البداية ما يكشف عن بوادر فشله لان عناصر من البيئة نفسها اخذت تستجيب للنصائح المتعلقة ، وتحملت مسئولية الدفاع عن رايها وكان مظاهر الهزيمة واجهت هذا المرتد منذ البداية ، وهو شيء لم يعرف في بلاد العرب الاخرى .

ومن الصحيح ان الحماس ضد الاسلام لم يكن واضحا في البحرين ، كما لم يكن الحماس واضحا في جانبه ايضا ، وكان ذلك في وقت عصيب امتلأت فيه بلاد العرب بالرافضين والمتنبئين والراغبين في البعد عن جميع القيود ، واذا لم يظهر ميل في اي مكان نحو استئناف الحياة مع الوثنية العربية من جديد ، فقد كان مأمولا ان يكون هذا الميل ابعد في البحرين منه في اي مكان اخر .

واختلفت البحرين عن غيرها في ان قوة المرتدين في المناطق العربية الاخرى كانت تنميها دوافع العصبية القبلية ، بدعوى رفض التبعية ، وعدم قبول المركزية ، او بنوع من الدعاوى الكثيرة الاخرى ، ولم يظهر اتجاه نحو الوحدة السياسية ، او الاشتراك بالعمل في شيء واحد ، وظهرت انتفاضات قوية في اماكن مختلفة ، حيث تتجمع العصبيات ، وتعرف مراكز النفوذ . وكلما زادت درجات التخلف وكلما ضاق افق التفكير ازداد الحماس لزعيم من الجماعة ، ولم يكن مهما ان يعرف الكثيرون شيئا من امر هذا الزعيم او غيره وانما سيطر في الافق جو حماسي بغير وعي ، او بوعي مريض يميل نحو الانقسام والتشرذم .

لقد كانت الردة في البحرين من نوع متهالك ، لا تبعية مطلقة لاتجاهات معارضة ، ولا زعامات محلية مؤثرة ، ولا بديل لما يرغب بعض الناس في تبديله ولا اصرار على شيء بعينه ، ولم ترتفع صيحات العصبية ، ولم يعرف التظلم من بعض اركان الدين ، ولم يعلن الرافضون عن شيء واضح ، وكأنما سادت في بلاد العرب ظاهرة مرضية افسدت الاجواء كلها ، وسارت بالجميع نحو متاهات مظلمة[٣٤] .

ثم بحث المرتدون في البحرين عن رئيس لهم من خارج المنطقة ، فدعوا لهم سيدا ينحدر من سلالة الملوك المنادرة اصحاب الحيرة[٣٥] ، وهذا يعني ان احساس المواطنين في البحرين بالارتباط ببلاد العرب القريبة من بلادهم كان قويا ، وكانت بلاد العراق الجنوبية اقرب المواطن العربية تاثيرا في نفوس بهذه المنطقة .

لقد انحسرت لسباب المشكلة اذن في قصر المسافة بين الاتصال بالدين ووفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجاء عامل جديد زاد موقف المسلمين حرجا ، وهز وجودهم في البحرين هزا عنيفا وهو وفاة رئيسهم المنذر بن ساوي التميمي قرب وفاة الرسول ، وبهذه الوفاة اصبح تابعو الدين الجديد بدون قيادة ، وان لم تطغ عليهم عوامل الفساد الشائعة في بلاد العرب الاخرى .

وجاءت النهاية بأن وقفت قوتان من داخل المنطقة ، تواجه احداهما الاخرى ، فقاد الحطم المرتد جماعات شبه هازلة ، ونزل القطيف وهجر ، وحاصر المسلمين في دارين وجوائثا[٣٦] ، وطالت فترات الحصار مدة كانت كافية لوصول النجدات المطلوبة ، وظلت الحرب متاوشات لمدة تقرب من زمن الحصار ، وبعد ذلك مكن المرتدون لخصومهم من انفسهم ، فسكروا بالليل ، وارتفع صياحهم بالهذيان في وقت الجد ، فأسرع اليهم المسلمون لينهوا الحرب لصالحهم ، وتلك ظاهرة تشير الى عدم الجدية في الجانب المعارض ، والى عدم الادراك لحقيقة الحال[٣٧] .

وبعد الانتصار على تلك الشراذم الهازلة تجول المسلمون في مناطق البحرين بتحدون الخطر ، ويقتحمون الصعوبات ، فلم يواجهوا مقاومات اخرى ، وحصلوا على غنائم تكشف عن سلامة الاقتصاد بالمنطقة رغم ذلك الاضطراب والفوضى[٣٨] .

الحرب في ايران :

قلنا ان المواطن العربية في البحرين لم تعرف زمن الردة زعامات طموحة ، لها تطلعات قيادية هادفة كما عرف مثل ذلك في كثير من المناطق العربية الاخرى[٣٩] ، ولم تعرف كذلك متنبئين تضطرب اراؤهم حول رقعات مختلفة ، ولم تعرض قبيلة في البحرين من بينها زعيما سياسيا ، او نبيا دعيا على القبائل الاخرى لتقف معه او تقاتل دونه ، ولم يعرف بهذه المنطقة ما عرف بغيرها من حركات انفصالية من داخلها وانما كانت تقف مع القلق والترقب ، ولعلها كانت أبعد من غيرها عن الاقتناع باتجاه دون غيره ، او نقول انها كانت في حال وسط بين الشك واليقين ، كما كان ذلك شأنها في بعض أحوالها ، لقد رفض غيرها الاسلام جملة ، أو رفض بعضا منه ، وحارب أهله وانهزم امامهم ، اما الناس في البحرين فقد انقسموا الى جماعتين : ترفض احداهما الدين كله ، وتنتظر الاخرى تطور الاحداث معه ، ثم حسم احد الطرفين الموقف لصالحه وكانت المعارك غير حاسمة وغير مؤسية ، تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة ، كأنها كانت مباراة بين فريقين يجد أحدهما ويهزل الآخر ، ثم انتهت لصالح الاقوياء بمثل المحاولات المعهودة في بلاد العرب .

ثم بعد هذه الخصومة الطارئة بين جماعتين من البحرين اندفع المنتصرون بالحماس والرغبة لعمل شيء لصالح فضيتهم في بلاد الفرس بعد ان املت روح المنطقة على قائدها هذا الاتجاه الجديد ، وكان هذا القائد يرى في رجاله ما يكفي من الرغبة لقيادتهم الى السواحل الايرانية القريبة[٤٠] ، وكان العلاء بن الحضرمي يمثل روح الحماس السائدة في مناطق البحرين لصالح دعوة الاسلام ، فرأى القيام من جانبه بمحاولة جريئة ضد بلاد الفرس التي يعرفها أهل البحرين ، ولعلهم كانوا أول العرب ادراكا لمظالم حكامها في عصور سابقة .

وكان المعهود عند الطرفين ان تغلب قوة احدهما الآخر وان تحاول فرض نفسها عليه ، وكان ذلك اشد وضوحا في جانب الفرس منه في جانب العرب ، ففي محاولات كثيرة كان الفرس يسعون لتثبيت وجودهم في بلاد العرب لفترات تطول او تقصر تبعا لقوتهم وضعف خصومهم ، ثم كان العرب

من جانبهم يرفضون التبعية للفرس ، ويعيشون امامهم تحت الخطر بالشجاعة والاستعداد للتضحية .

لقد كان العلاء اذن يمثل الروح السائدة في مناطق البحرين التي كان واليا عليها ، ودفعته هذه الروح لكي يسرع في محاولته ليضيف الى جهوده الناجحة ضد المرتدين جهودا اخرى مماثلة وليأخذ دوره بجانب القواد الكبار في الجبهات الاسلامية الاخرى [١١] ، وكان بذلك يرضي حاجة في نفسه ، ويستجيب لعواطف شعبه .

اندفع العلاء اذن بالحماس فنقل جيشه من البحرين الى بلاد الفرس ، وترك سفنه بغير حراسة ، او مع حراسة عاجزة ، وتقدم للفتح كما يفعل الغامرون المستبسلون ، وكان سعيدا لانفتاح مجالات العمل العسكري امامه . فتركه الاعداء يسير حيث شاء في بلادهم بغير حذر ثم حاصروه بعيدا عن مكان البداية ، وقطعوا عليه الطريق فاصبح عاجزا عن الحركة ، وضاقت امامه سبل العمل المفيد . وكان عليه ان يواجه الخطر بالشجاعة وحدها . ولكن الشجاعة لم تكن كافية في مثل حاله تلك ، كما لم تكن كافية بعد ذلك امام نظيره في الشجاعة عقبة بن نافع في شمال أفريقية بعد ان اندفع بفرسه الى سواحل المحيط قائلا : انه لو كان يعلم ان وراء الماء يابسة لخاض بفرسه البحر ، جهادا في سبيل الله ، وعند رجوعه قطع عليه خصومه الطريق ، فكان عليه ان يواجه هذا الخطر المفاجيء بالشجاعة وحدها ولما لم تكفه الشجاعة دفع حياته ثمنا لحماسه وتسرعه ، ومات شهيدا مع بعض رفاقه .

ولكن العلاء بن الحضرمي وجد من اسرع لنجدته في الوقت المناسب ، فاندفعت له جيوش المسلمين من البصرة وابعدت عنه الخطر ، وبذلك نجا مع بعض جيشه من هزيمة اشرفت عليه ، واسرع هو من جانبه اليها ، وكان عليه ان يواجه المسئولية امام الخليفة [١٢] ، الرافض لكل مظاهر الفشل والعجز والهزيمة .

وغضب عليه الخليفة عمر بن الخطاب لتسرعه ، رغم تاريخه وجهوده ، وحسن نيته ، فعزله ونصحه بالسير الى مكان آخر .

وكان العلاء مجاهدا شجاعا ، شديد الاخلاص صادق العزم ، بعيدا عن الشبهة ولعله اراد ان يسابق الزمن بالعمل لصالح الدين والدولة ، وهذا شيء مفهوم وثابت ولكن تسرعه لا يضعه في صفوف القواد المدركين لاهمية الرأي قبل الشجاعة ، ولم تكن القضية في جانب الدين وحده ، قد يكفي لها الحماس احيانا ، وانما كانت قضية دينية وعسكرية ومصيرية في وقت واحد .

ومن الصحيح ان نقول ان المسلمين في البحرين كان لهم شرف ركوب البحر قبل غيرهم من أجل الجهاد الديني ، وان نقول انه اذا لم يصادفهم النجاح في هذه المحاولة فهذا شيء يرد في حالات اخرى ، ويحدث مثله مع قواد آخرين وفي عصور مختلفة [١٣] .

واذا كانت هذه الحملة فاشلة من وجهة نظر المسلمين وخليفتهم في ذلك الوقت فذلك لانهم كانوا يستفتحون العمل العسكري في جبهات اخرى ، فكانوا حريصين على الا يتعرضوا لما يجرىء عليهم الاعداء او يثبط فيهم الهمم .

واذا لم ينتصر العلاء فهو لم ينهزم في الوقت نفسه وانما طلب النجدة اذ كان في حاجة اليها ، وطلب النجدة معهود في حالات مشابهة ، غير ان هذا الخليفة كان يرفض الحياة مع الهزيمة ولا يرضى بالفشل مهما كانت اسبابه . ثم كان شديد

الحماسية [١٤] ، يدفعه الحرص على النجاح الى ان يضع الجميع امام مسئولياتهم عن اعمالهم امامه مع مواجهتهم بالعنف والصرامة والاتهام أيضا [١٥]

لقد كانت وسائل المسلمين في الحرب خلال تلك العهود المشرقة مبنية على اسس متطورة فكانت المسئولية في يد المسئولين عن ادارة الدولة ، ولم يكن هؤلاء المسلمون يعرفون العشوائية ، ولم يعوزهم الفهم السليم في جميع الاحوال فلا يتوقع احدهم نصر الله الا ممن ينصر نفسه ، ولن يستحق ذلك النصر ، ولم يتعاملوا مع اعدائهم الا في الوقت المناسب والمكان المناسب ، وبقيادات وجيوش مناسبة ، وكانوا دائما يطالبون قادتهم بالنتائج المرغوب فيها ، ولا يبيحون لاحد منهم ان يمارس التجربة مع احتمال النجاح والفشل في القضايا الكبرى التي لا تحتمل مثل هذه التجارب ، ولذلك مرنوا على الهدية ، وكسبوا انتصاراتهم عن جدارة .

فاسراع العلاء بن الحضرمي بالغارة على بلاد الفرس [١٦] ، دون علم الدولة [١٧] يعطي انطباعا حسنا بالحماس والرغبة في التضحية من أجل قضية الدين واهله ولكنه في الوقت نفسه يعطي انطباعا سيئا بانه كان يعمل بدوافع من نفسه تجاه قضية كبرى تقع مسئوليتها على الدولة قبله ، وقد تكون دوافعه لهذا العمل طيبة ومفهومة تمنحه العطف والمودة، ولكنها مع ذلك توحي بالفوضى وعدم الانضباط والاستقلالية المعيبة، والخروج على حدود المسئولية التنظيمية المتاحة، وكأنه كان يعطي لنفسه فوق ما كان ممنوحا له، فليس من المقبول ان يتصرف قواد الدولة بعيدا عنها، او ان يهملوا الاعتراف بوجودها.

ولو انتصر العلاء في محاولته تلك لاصبح مسئولا امام رئيس الدولة ايضا ، وقد تكون المخالفات الطارئة بسبب رؤية مباشرة اثناء المعارك الدائرة مقبولة او مفهومة [١٨] اما ان يعلن أحد القواد حربا على الاعداء من جانبه فهذا شيء غير مقبول دائما .

فلا معنى اذن للتعاطف الطيب مع هذا القائد الشجاع لأن أمور الحرب هكذا يعرفها الناس طول الزمن .

لقد ابعد العلاء بن الحضرمي نفسه بتسرعه عن صفوف القواد الكبار في عصره واسقط اسمه من قوائم ذوي الكفاءات من اخوانه ، وليس ذلك بسبب فشله ، او حرج موقفه ، وانما لمخالفته اصول النظم القيادية السائدة عند جميع الامم .

***

وربما دفع العلاء لهذا التصرف علاقات غير صحية سادت بين العرب والفرس خلال فترات طويلة من الزمن ، فلقد عرف الكثير من محاولات التعامل بين العرب والفرس وعرف الكثير من الصلات التي كانت تقوى وتضعف تبعا لتطور الاحداث وحاجة الطرفين ، وذلك مع ادراك الحقائق الثابتة حول اختلاف الوطن وتباعد القومية ، فقد أقام الفرس بأوطانهم دولة كانت في مراحل تطورها منافسا قويا لدولة عالمية اخرى ، وكانت لقوتها تجور على جيرانها ، وتفرض عليهم الخضوع والتبعية .

وحاول العرب بدورهم ان يقيموا في أوطانهم دولة تجمع شتاتهم وتوحد كلمتهم ، فعرفت لهم محاولة ناجحة بجنوب بلاد العراق ، اذ استطاعت دولة المناذرة بتلك المنطقة العربية ان تستقطب الجماعات العربية وان تؤدي دورها في خدمتها ، غير انها لم تستطع الحياة في بلادها كما أرادتها بسبب قربها من سطوة الفرس الاقوياء ، ولقد حاولت هذه الدولة ان تبني صلات مباشرة مع كثير من العرب في المناطق الاخرى وعرف لها نفوذ في البحرين وما حولها ، وعرفها شعراء العرب واشادوا

بذكرها ، غير ان جيرانها وقفوا امامها لتوجيه جهودها لصالحهم فكانت تحرس متاجرهم وتؤمن مواصلاتهم ، وترافب خطوط الدفاع عنهم ، وتخفر مواقعهم وتبعد عنهم اذى الراغبين في السطو عليهم وكان العلاقات بين هذين الطرفين المتجاورين كانت قائمة على حساب الضعيف منهما ، كما هي عادة الحياة والناس عبر الزمن ، واستمرت دولة الفرس تستعين بحراسة العرب لتجارتها ، وتواجه اعداءها بمن يحطل تقدمهم ، ومن يعطي لها الانذار السريع قبل حدوث المفاجأة .

فلم يكن التعامل بالمثل آذن معروفا بين الامتين ، فاى خطا كان يقوم به العرب كانوا يهابلون بسببه بالامتهان او الابادة ، وأي فراغ يحرف في منطاقهم القريبة تزرع فيها العناصر الموالية لتكون من مظاهر التبعية ، او من وسائل القول بها عند الحاجة ، وايضا وجد الفرس لجيرانهم العرب قوة حاولوا توجيهها لخدمتهم او تقايل عند الرفض بما يمهي دورها ويقضي عليها ، والكثافات البشرية المتجمعة في منطقة او أخرى يمكن معالجتها بالتوجه من مكان لآخر ، دون النظر الى الارتباط بالوطن او ممارسة وسائل العيش المتاحة في البيئة .

وفي مقابل ذلك عرف العرب طريقهم للثورة على هذه المظالم من وقت لآخر ، فكانوا يندفعون بالجرأة والمغامرة لتحقيق غاياتهم العاجلة[٤٩] ، ولقد حدث حتى في الزمن البعيد ان اضطرب النظام في دولة الملك سابور الثاني سنة ٣٠٩م ، فاغار العرب من سواحل الخليج على بلاد الفرس ومارسوا فيها وسائل العنف المعهودة بين الطرفين[٥٠] ، ثم جاء دورهم بعد ذلك امام دولة الفرس القوية بعد تماسكها ، فقاد هذا الملك نفسه غارات كاسحة على بلاد العرب القريبة ، ومنها مناطق في البحرين وما يجاورها ، وقتل من العرب من مكنته منهم وسائل الموت ، او نهاية الأجل ، حتى وصل به الظلم الى غايته[٥٢] .

ولقد حدثت غارات كثيرة متبادلة بين بلاد العرب وبلاد الفرس ، وكان لطرف منها نظام وجيش ودولة ، ولم يكن للطرف الآخر غير الشعور المشترك بحب الحياة ، والايمان بقيمة الحرية ، والتعاون لدفع الظلم ، ولم يكن هناك ما يشبه الرضا او القبول بالتبعية ، ولم تكن هناك كذلك محاولات من جانب الاقوياء لكسب القلوب المستضعفة بالوسائل المرضية ، وفي أوقات الضعف في جانب العرب كان الفرس يفرضون عليهم حكاما تغلب عليهم روح العداء والكراهية[٥٣] ، وفي النهاية غيروا طريقة الحكم برجل من خارج السلالة أو برجل غير ناشىء في البيئة الى بعض العرب المشهورين من ذوي النفوذ والكفاءة ، وغلب هذا الاتجاه حتى صار سياسة ثابتة واتجاها معروفا .

واذا عاشت دولة العرب في جنوب العراق مع الولاء للفرس ، فقد كان ذلك نوعا من الفهم الصحيح لدور القوة في العلاقات بين الامم ، فلم يكن بوسع هذه الدولة ان تعرف الحياة بدون هذا الولاء المؤسي لانها كانت تشارك الفرس في مواجهة عسكرية لجبهة اخرى ، واذا لم يكن من صالح العرب ان يقحموا انفسهم في الخصومات السائدة بين دولتين كبيرتين فان هذه الخصومات فرضت على من لا خيار له في قبولها أو رفضها وربما فرضها كذلك وضع بلاد العرب عند مناطق الصراع بين هاتين القوتين فلم يكن آذن هذا الاتجاه سياسة مقبولة ، وانما كان أمرا لازما لا يمكن رفضه .

***

وجاء الاسلام ففجر ميزان القوة لصالح العرب ، واعاد للمنطقة عروبتها الصريحة

ومكن للسيادة العربية في مناطق البحرين وفي بلاد الفرس معها ، واصبح من مفاخر العرب بعد انتصارهم على الفرس والروم انهم انهوا قصة الصراع الدائر على الحدود المشتركة بينهما . فأصبحت تلك الحدود تابعة لسلطة واحدة لاول مرة في التاريخ[٥٤] .

البحرين في عهد الراشدين :

ثم استمرت البحرين بعد رحيل قائدها العلاء بن الحضرمي تسهم بجهد ملحوظ في النشاط العسكري الذي عرفه المسلمون خلال عهدهم الأول ، ولم تعرف بها معارضات قوية ضد أحد الخلفاء الراشدين ، في وقت الخصومات المعروفة ، ولم تتضح كذلك أية رقابة محمومة لواحد من هؤلاء الخلفاء ، كما حدث الكثير من ذلك في مناطق اسلامية أخرى ، منها العراق ومصر ، ومن بين أهل المدينة أنفسهم ، وكان الدلائل الكاشفة عن وضوح ما عرف بعد ذلك بالمذهبية الدينية او الانقسامات السياسية لم تكن قوية في هذه المنطقة العربية ، ولعل جميع مواطنيها كانوا يوالون الخلفاء الراشدين واحدا بعد صاحبه ، ولعل كل الناس هناك او جلهم كانوا تحت راية هؤلاء الخلفاء طوال الوقت ، ولقد عرف ان اتجاه الناس وميولهم في هذه المنطقة كانت في صالح الخليفة الرابع الامام علي بن ابي طالب حتى بعد أن عارضته عناصر أخرى من بلاد الشام وغيرها ، ولم يكن الشعب في البحرين يظاهر التأييد لهذا الخليفة وحده ، وانما كان هناك معه كذلك ولاة أقوياء لهم نفوذهم في البيئة ، وعرف منهم ابان بن سعيد بن العاص الثقفي ، وعمرو بن ام سلمة ، ومعبد بن العباس بن عبدالمطلب ، وزعماء آخرون وافقوا على رأي الخليفة ، وحاربوا معه واخلصوا في التضحية من أجله وعرف الكثير عن دور قبيلة عبدالقيس ، وعناصر أخرى من ربيعه في الحروب الاهلية التي شهدها عهد الخلفاء الراشدين عند نهايته ، فقد كان لعبدالقيس عدد وافر من الفرسان شاركوا في هذه الحرب[٥٥] ، وكان الخليفة يعرب عن امتنانه للمحاربين معه من الجماعات القادمة من البحرين ، وكان يمنحهم ثقته وثناءه ودعواته .

ومع ذلك قد لا يمكن القول بأن مناطق البحرين كلها كانت مغلقة لصالح قضية الامام علي وحده ، فقد كانت هناك عناصر معارضة ، تقف في الاتجاه الآخر ، وترى حول هذه القضية رايا يخالف ما كان سائدا بين الجماعات الكثيرة المؤيدة .

فاذا حاربت عبدالقيس ـ وكانت تمثل العناصر العربية النشيطة في البحرين لفترات من الزمن[٥٦] ـ في صفوف الخليفة الرابع في تلك الحروب المؤسية فانما كان ذلك بدوافع الفهم الغالب على الناس ، وهو ان هذا الخليفة كان دائما مع الحق ، وكان الحق معه ، فالحماس له آذن كان بدافع الثقة فيه ، وباسم النظام والرغبة في الاستقرار ، وباسم الحق والقانون ، وليس لأسباب عاطفية طارئة ، أو لغرائب شخصية عارضة ، وكان الكثيرون يرون دورهم في خدمة النظام السائد ، وفي حفظ الدولة القائمة ، وفي سلامة الأمة الموحدة .

لقد أيدت آذن مناطق البحرين سلطة الدولة القائمة ايام الخلفاء الراشدين ، ورغبت في الاستقرار ، وتعاونت مع الحكام في حرب المعارضين ، وكان هذا الميل قويا وواضحا ، حتى لقد طبع المنطقة بما يكشف عن اتجاه واضح الى جانب دون آخر ، وشاع بين الناس أن ميول المواطنين في البحرين كانت مع الخليفة الرابع وحده وان الكثيرين منهم يتبعون مذهبا يدور حوله ، أو يتأثرون بأمور تتعلق بوضعه كسيد متميز

بين رفاقه ، أو كصاحب حق ينبغي ان يكون في مكانه ، وقوى هذا الفهم وذاع عن اكثر المواطنين في البحرين ، وهو امر وضع المنطقة في دوائر الشكوك والاتهامات أمام الحكام القادمين على الطريق بعد عهد الخلفاء الراشدين ، وجعل المخالفين لوجهة نظر الخليفة يتعرضون لهم بوسائل العنف بعد وفاته ، ويفترضون فيهم جبهة معارضة ينبغي الحذر منها ، والشك فيها[٥٧] .

ثم سيطر هذا الفهم وتأصل في عقول بعض القادة من بني امية ، فكانوا يسيئون الظن بالقاطنين في البحرين ، ويتعاملون معهم بما يناسب هذا الظن في أحوال كثيرة **وكانما خلقت جبهة معارضة يغلب عليها الاشغال اكثر من الواقعية** ، وفي وقت كان **فيه الكثيرون** في البحرين غير راغبين في **الوقوف مع الطرف المعارض لهؤلاء الحكام وعرفت اوقات كثيرة لم يتحقق فيها الامل في لقاء الطرفين عند رأي مشترك** ، واستمرت **الدولة الاموية عند رأيها ، فكانت تواجه السكان بما يفرضه عليها سوء الظن أو ما تدعو اليه الحاجة من اثبات الوجود بوسائل العنف** ، واستمر المواطنون عاجزين عن اللقاء بالحكام عند منتصف الطريق ، ولعل ذلك يفسر ما يعرف من اتجاه عناصر المعارضة الى هذه المناطق من وقت لآخر ، فلقد استفاد المعارضون للنظم السياسية في دولة المسلمين آنذاك من شيوع روح التسامح ، واتساع افق الفكر ، وضمان الحياة لكل الناس في البحرين .

ولم يكن سكان هذه البلاد يؤيدون كل الاتجاهات ، او يميلون مع كل الميول أو يحاربون مع اصحاب كل المذاهب ، أو تتنوع اهواؤهم وعواطفهم ، وانما كانت بلادهم بعيدة عن المدى القريب لسلطة الدولة ، وكانوا يفسحون للآخرين معهم مكانا في بلادهم ، وان اختلفت الآراء وتعددت المذاهب[٥٨] .

الخوارج في البحرين :

يشير لجوء الثوار في أوقات مختلفة لمناطق البحرين الى محاولة استغلال بعدها عن العواصم السياسية التي كانت تتجه بكليتها اما الى سواحل البحر الابيض الشرقية ، واما الى مطلع الشمس في خراسان وما يجاورها ، وكان هنا وهناك جماعات نشيطة تجد فرصتها في العمل بالسياسة تحت قيادة زعامات عربية لها مكانتها وكفاءتها .

اما البحرين فقد كان مواطنوها يقيمون على أوضاع ظلت ثابتة طوال الوقت وكانوا يمثلون الجماعات الآسفة لعدم الحصول على نصيب وافر من حركة التغيير بعد قيام الدولة ، وبعد انتصاراتها التاريخية المعروفة ، وكان بلادهم تنوسيت قصدا وسط الزحام والصخب ، ولم تأخذ دورها بين الانصار ذوي الرغبات والطموحات .

وبقيت مناطق الخليج العربي تعيش حياتها وتمارس نشاطها ، وتواجه ظروفها في محيطها وبيئتها ، فوجد فيها الخارجون على النظم السياسية ، فرصتهم من أجل البعد عن سطوة هذه النظم ، ومن أجل الاستقلال المعاشي دون الحاجة لاستجلاب وسائل الحياة من الخصوم السياسيين .

ولم تكن هذه المناطق تدفع أحدا للبعد عنها ، لا بسبب الحاجات الملحة ، ولا بسبب الخوف من شيء مفاجيء .

***

وايا كانت صحة الروايات الواردة عن نشأة الخوارج في التاريخ الاسلامي[٥٩] ، فان هذه الطائفة المسرفة في الغضب على كل النظم من حولها مارست دور الجماعات المستبسلة في القتال امام خصومها ، وكانت

تدور حول نفسها ، مع الاصرار على رأيها المخالف طوال الوقت .

ثم كانت تتجمع وتفترق من داخلها **بسبب** ارائها حول القضايا الدينية ، **واستقر** بها الرأي في النهاية الى ان تؤدي **دورها** المعارض في المناطق التي تصعب **الاقامة** فيها ، أو في المناطق البعيدة عن **سلطة** الدولة .

وكانت البحرين واحدة من مراكز **التجمعات** الخارجية في أوقات كثيرة ، فعرف **بها** الخوارج من وقت لآخر ، وكانوا جماعات **ثورية** حاولت تلوين الاحداث بالمنطقة أو **صنعها** ، ولعلها وجدت هناك بعض التأييد **والمناصرة** ، وقد لا يكون القصد عند مؤيدي **الخوارج** بالبحرين ان يجتمعوا معهم عند **فهم** مقبول حول العقيدة ، بقدر ما كان **الهدف** منح التأييد لهذه الجماعات الرافضة **كنوع** من الاحتجاج على انهيار الحياة **الاقتصادية** في بلادهم ، أو نقول ان **الانتصار** للخوارج في البحرين كان يبدو **احيانا** لونا من الوان الحماس لزعامات قوية **تنتسب** لبعض العصبيات القوية في المنطقة .

ولقد اشتدت ثورات الخوارج ايام **الخلافات** المحمومة على السلطة بين المطالبين **بالخلافة**[٦٠] الاسلامية ، فذهبت جماعات **منهم** الى البصرة يقودها نافع بن الازرق ، **ثم** انتقلت الى الاهواز سنة ٦٤هـ ، وكان **هذا** الزعيم الخارجي يتبنى مبادىء ثورية **تكشف** عن هول الغضب في نفسه على **مخالفيه** فكان يبيح لنفسه ولانصاره كل ما **كان** لهؤلاء الخصوم ، حتى حق الحياة **والموت** ، وكانه كان يتحدى الدنيا بجماعات **قليلة** من مؤيديه مما دفع بعض أنصاره الى **الخروج** عليه ، فعارضه منهم من قبل **الحياة** مع الناس بالتقية وعرف هؤلاء **لانفسهم** زعيما آخر هو نجدة بن عامر **الحنفي** ، فلجأ نجدة مع جماعته الى اليمامة حيث كانت هناك عصبيات قبلية تؤيده دون الاهتمام بوجهات نظره الدينية وكانت هناك كذلك جماعات كثيرة غاضبة على الدولة لأسباب مختلفة .

وكثر أنصار نجدة بن عامر باليمامة ، فأصبحوا ثلاثة آلاف[٦١] ، يرى كل منهم ضرورة الالتزام بطاعته ، فأخذ يهاجم مناطق البحرين المجاورة سنة ٦٧هـ ، بعد ان وجد بها فرصته بسبب انقسام القبائل بها على نفسها[٦٢] ، فانتصر في القطيف واتسعت سلطته حولها .

وبعد ذلك الح بالحرب على مناطق البحرين المتبقية ، ولم يعطل تقدمه محاولات عاجزة بذلها الكثيرون من البحرين رغبة في الاستقلال بداخلها ، وكذلك من أجل البعد عن الخصومات المؤدية لغضب الدولة الاموية .

وبعد نجاح نجدة بن عامر في الحرب بالبحرين سنة ٦٨هـ[٦٣] ، اختلف عليه رجاله وقتلوه سنة ٧٢هـ ، وجاءوا بزعيم غيره[٦٤] ، فنقل الزعيم الجديد مركز نشاطه الى مناطق البحرين ذاتها ، وشغل نفسه بالحروب ضد قوات الدولة ، فانتصر في بعضها ثم انهزم أمام جيوش الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان سنة ٧٤هـ .

ومع ذلك لم تعن هذه الهزيمة نهاية النشاط الخارجي بالبحرين ، اذ قام بدورهم فيها قبائل عبدالقيس الثائرة لسنوات كثيرة ، فلقد حاولت هذه القبائل معارضة الحكام الامويين باسم الخوارج[٦٥] ، وكانت تنقل نشاطها العسكري الى مدينة البصرة حيث تجد فيها تأييدا من قبائل عبدالقيس المهاجرة اليها .

لقد كانت العناصر المعارضة باسم الخوارج في البحرين ترى ضرورة رفع الصوت بالاحتجاج على سيادة الدولة الاموية ، بعد ان فقدت بلادها اهميتها

التجارية ، وبعد ان انتقل النشاط الاقتصادي الى مناطق اخرى ، وبعد ان اصبحت البصرة قاعدة عسكرية لحركات الفتوح الاسلامية في الشرق .

القرامطة في البحرين :

قد تكون الحركات الثورية التي حاولت اتخاذ البحرين مركزا ثابتا لنشاطها المعارض متشابهة من حيث رغبتها في اثبات وجودها بالعنف والصرامة أمام الدولة القائمة .

وكلها كانت ترى بتلك المناطق الكثير مما يسهم في تواجدها ويساعد على استمرارها ، ولعل من ذلك ما كان هناك من طوائف كادحة كانت متواجدة داخل المجتمعات في هذه البلاد وما يجاورها . ولا تفتر كتب التاريخ عن الاشارة الى وجود جماعات كثيرة كانت تعاني قسوة الحياة وبؤسها في جنوب بلاد العراق ، قريبا من البحرين التي تحاول التعرف على شيء من تاريخها .

فكانت في هذه الجماعات الفرصة السانحة للاستثارة بواسطة الثوار القادمين من خارج الساحة البحرينية او المنبعثين من داخلها . لانها كانت شبه مسخرة في أعمال شاقة . او كانت تقوم بجهود مرهقة لا يقبلها غيرها ، ولا يقدم عليها غير المضطرلها ، ثم لم تكن في الوقت نفسه تنال اجرا كافيا عليها او ربما لم تكن تنال شيئا في مقابل اداتها .

ولقد وفدت غالبية هذه الجماعات باختيارها من بلاد الهند[٦٦] او من شرق افريقية ، او من مواطن اخرى مجهولة ، ولما لم تكن تستطيع الحياة في مواطنها قبلت الحياة الجديدة مع قساوتها وبؤسها . ثم كان بعضها الآخر مجلوبا بوسائل العصر من بلاده من أجل الحاجة اليه . فقد كان القصد ان تملأ هذه العناصر الفراغ الذي تركته الجماعات العربية المشاركة في النشاط العسكري الدائر في عهد بني امية ، وبعد انتصارها وجدت فرصتها في بلاد اخرى جديدة ، فلم يرجع اكثرها الى مواطنه الاولى ، وانما استقر بأهله في المناطق المفتوحة ، واندمج في الحياة هناك ، وصارله وجود متميز بها ، حتى اصبحت الجاليات العربية تمثل مراكز الثقل السياسي والاجتماعي في كثير من أماكن اقامتها ، فكان هناك وجود للعرب في خراسان البعيدة[٦٧] وفي غيرها من الاقطار التي فتحها القادمون من جنوبي العراق وشرق الجزيرة العربية .

واصبح معروفا ان الجماعات العربية المهاجرة تركت فراغا ملحوظا في مواطنها الاولى . وكان اهم المناطق التي عرفت فيها هذه الظاهرة الاجتماعية بلاد العراق الجنوبية والمناطق القريبة منها .

وكانت هناك رغبة عند بعض الولاة في العراق في أن يحطموا اتجاهات المنطقة الى معارضة الدولة الأموية ، فكانوا يوجهون الكثير من اهلها للفتوحات[٦٨] في اواسط اسيا ، او يحاولون ابعاد الناس عنها بوسائل اخرى خوفا من التعطل الداعي الى النظرة في السياسة ، وعرف كذلك أن بعضهم كان يرغب في الجهاد حبا فيه ، من اجل ثوابه ، او من اجل مكاسبه ، او للامرين معا ، وكان بعضهم الآخر يريد الجهاد من اجل البعد عن التورط في الخصومات الدائرة بين الدولة والعناصر المعارضة لها ، وعرف عن بعضهم ايضا أنه كان يبعد قسرا عن هذه المناطق لتهدأ عواصف الفتن ، ولتطول فترات الاستقرار .

ولهذه الأسباب وغيرها ، وخلال هذه الفترة وما بعدها عرفت بلاد العراق الجنوبية ، وعرفت مناطق البحرين معها حركات ثورية عنيفة ، قاد بعضها الخوارج المستبسلون في القتال حتى الموت ، أو الراغبون في الحرب طول الوقت ، وكانوا جماعات فدائية قليلة ضاعت امامها معالم الرؤية الواضحة للحياة الاسلامية كما يريدها الاسلام ، فكانت تقف على حافة الخطر أمام اعدائها ، وكانت تلتزم دائما بفهمها الخاص بشئون الدين وما يتصل به . ولم يكن مهما عندها بعد ذلك شيء آخر[٦٩] .

وبعد ان انتهى دور الأمويين القيادي في دنيا السياسة في بلاد المسلمين وبعد ان انهزم حزبهم أمام العناصر العاملة في صفوف العباسيين بخراسان وغيرها جاءت دولة بني العباس واستقرت سلطتها على ارض العراق بمناطق المعارضة القديمة فتكاثرت عليها العناصر التي ايدتها أو اسهمت بنصيب في خدمتها ، وامتلأت بلاد العراق بكثافة سكانية غير معهودة ، من العرب وغيرهم ومثل غير العرب بها عناصر طموحة اسرفت في تقدير جهدها عند الاسهام في اقامة هذه الدولة ، ولذلك حاولت ان تأخذ ما تستطيع من مغانم النصر ، وأن يكون لها شيء من السلطة والقيادة[٧٠] .

وبعد أن تضخمت المشكلات امام اصحاب القيادة في تلك الدولة ، ولا سيما بعد ان تكاثر جيشهم من الأتراك القادمين من اواسط آسيا ، لم يصبح هناك قبول ثابت لسلطة بعينها ، وتاهت معالم الامور بعد ان ضعف العباسيون مع الزمن وجاء عصر الأتراك فلعبوا دور اصحاب القيادة العليا بالدولة دون أن تكون لهم وحدة أو زعامة أو اتجاه حضاري ، فكان الولاء لهم بدوافع الخوف والمجاملة ، لا بدوافع الثقة ، والتسليم بالكفاءة ، وملأوا الدنيا فسادا بمنازعات عقيمة .

ولقد عرفت في هذا الوقت حركات متطرفة ومحاولات ثورية عاصفة في مناطق البحرين وغيرها ، وكان لهذا التطرف أسبابه ودوافعه ، لأن الدعاة له ما كانوا يستطيعون جمع الناس حولهم بدون الاثارة القوية والوعود الحالمة[٧١] ، فلقد نجح الزنج[٧٢] وبعدهم القرامطة في تكوين جيوش شبه نظامية هددوا بها كل السلطات المعروفة في عالمهم ، وكان نجاح القرامطة واضحا ومثيرا للدهشة لأنهم نادوا بأفكار يتعاطف معها الكثيرون في المنطقة وليس من المهم الآن أن نقول انهم كانوا مع الحق او على الباطل ، وانما المهم ان نقول انهم وجدوا فرصتهم في المناطق الخالية من سلطة الدولة ، أو البعيدة عن اشرافها المباشر وكانوا من الوعي بحيث التقوا مع الكثيرين من أصحاب الأهواء المتعارضة فكانوا يتظاهرون بالتدين أمام محبي الأديان وكانوا يعلنون الالحاد أمام الرافضين لها ، ثم كانوا أصحاب مذهب مع من يوالون المذاهب ، وكانوا كذلك مشعوذين مع من تؤثر فيهم الشعوذة[٧٣] ، ثم هم في جميع الأحوال لا يقصدون شيئا مما يعرفه الناس عنهم ، وانما تدور اهدافهم وجهودهم حول ضرورة تواجدهم مع السيادة والقيادة والغلبة ، وليس مهما بعد ذلك ان يكون الطوفان أو لا يكون[٧٤] .

ومن المعروف أن الاتجاهات الثورية قد تركزت قبل ذلك في شمال افريقية اذ كثرت هناك الخصومات بين العرب والبربر وزادت المنازعات حتى أدت الى ظهور حركات انفصالية اقامت دولا مستقلة[٧٥] .

ومثل ذلك حدث في كثير من المواطن الاسلامية لأسباب مختلفة ، ومنها مناطق البحرين العربية لانها ظلت مع حياتها التقليدية دون طفرات حادة أو تغيرات أساسية ، فكانت تستقطب الراغبين في البعد عن سلطات الدولة وسطوة الحكام .

وجاءت الثورات للبحرين من خارجها ، لأن العوامل الداخلية لم تكن كافية للثورة والاثارة ، ووجدت العناصر الوافدة عليها فرصتها لتخلخل الوجود الشعبي بها ، وللبعد عن سلطة العباسيين في بغداد[٧٦] ، وكانت هناك مع ذلك فرصة مناسبة لاقامة نظام مستقل بعيد عن الدولة ومؤيديها ولا تنقصه في الوقت نفسه امكانية الاتصال بالعالم .

لقد كانت البحرين في ذلك الوقت شبه نائية مع أهميتها ، تقع على طريق تجاري عالمي ، وفيها مصادر الحياة المطلوبة .

ولما لم تضعها الدولة في مكانها المرغوب فيه من الاهتمام والرعاية وجد فيها الخارجون على النظام[٧٧] مكانا صالحا للاقامة

●●●

وبدأت الحركة القرمطية سرية أو غامضة[٧٨] ، وكانت السرية والغموض من الاساليب المتبعة عند مبتدعي الانقلابات السياسية في عالم المسلمين وغيرهم[٧٩] أو بقول ان ذلك عرف عن كثير من الحركات الجديدة في العالم كله منذ القدم .

ثم اخذت هذه الحركة طريقها بالعنف وسط الزهام بعد أن استقطبت الكثير ممن أيدوها ، أو ممن ساروا معها الى المجهول بغير دراية . وبعد أن أدركت مقدار ضعف الدولة العباسية ، وبدى الضياع الذي وصلت اليه ، وكان من دلائل هذا الضياع أن بعض وحدات الجيش العباسي كانت تتعاطف مع القرامطة ضد الدولة .

ولقد تصرف قواد هذه الحركة في البداية كما يفعل قطاع الطرق عادة ، فكانوا يغيرون على بعض المدن أو القوافل التجارية ، فلم يلفظ العباسيون لخطورتهم ، وحسبوهم جماعة من العابثين بالأمن ، لا تلبث أن تخبو نارهم ، وأن ينتهي دورهم ، ولم يحدث أن ربط العباسيون بين تصرفات هؤلاء الثوار في الأماكن التي عرفوا بها ، مثل العراق والبحرين والشام واليمن ، حتى بعد أن ذاعت شهرتهم في هذه المواطن .

وكانما أصيب العباسيون بالغباء السياسي ، أو فقدوا حاسة الادراك بسبب عجزهم أو بسبب خضوعهم لسلطات أجنبية لا تفهم هذه العوارض ولا تهتم بها[٨٠] .

ثم وقف القرامطة على الطرف المضاد للتفكير السائد في عصرهم وطعنوا في كل ما يعرفه الناس[٨١] ، وكانت لهم قوة سخروها للتعبير عن سخطهم ورغبتهم في الانتقام ، ولذلك خافهم الكثيرون ، واستعدوا عليهم الدولة ، ولكن هذه الدولة كانت في حال قريبة من الموت ، فغشلت أمامهم وخشيت بأسهم ، وكانوا يستفيدون من اشاعة الخوف منهم ، لأنه كان احدى وسائلهم للنصر بدون تضحية .

وعاش القرامطة في مجتمعات مغلقة مع أفكار حبيسة ، وميول غامضة لا روابط بينهم وبين من حولهم ، ولا يعرف الكثيرون عنهم الا ما يريدونهم أن يعرفوه ، فأشاع الخائفون منهم أمورا لا تدرك حقيقتها ولا يستطاع فهمها بعضها غريب غير معهود وبعضها شاذ ومرفوض .

وأسرف خصومهم في الطعن عليهم ، لأنهم بدورهم كانوا يسرفون في التعامل معهم بالعنف والقسوة . ويسار كل فريق في طريقه ، من أسره القرامطة استعبدوه واذلوه ، أو أذاقوه طعم الموت وقد يزيدون على الموت ما لا يعرفه الناس من تمثيل وتشويه ، ومن أخذوه من الأطفال فرضوا عليه الرضا بما يشينه ويؤذيه وأما نساء الأعداء فكانت لهن قصص مروية فقد تضيع معهن القيم البشرية والكرامات الانسانية ، وقد يكون غير ذلك حسب الهوى والرغبة ، وليس مهما بعد ذلك أن يعرف[٨٢]

أحد والده أو لا يعرفه لأن الجميع كانوا ينتسبون للجماعة القرمطية ، وكانوا مسئولين في مستقبل حياتهم عن مصالحها .

مجتمع غريب نافر ، يحاصر نفسه بالنفور من غيره ، ويرفض التعاون مع المخالفين له ، ويسعى للتسلط بالظلم والاضطهاد .

ومثل ذلك كان يفعل المخالفون للقرامطة على الجانب الآخر ، وكانوا يحاصرون أنفسهم بالخوف منهم ، ويتسلط عليهم العجز عن مقاومتهم ، ويسرفون في اتهامهم بالخروج عن المعهود من سلوك البشر[٨٣] .

وكانما تاهت الحقيقة بين جماعات متعادية ، واطراف متصارعة ، أو كانما كان الرأي عند القرامطة أن ليس هناك ما هو مرفوض باسم الدين وما هو مفروض باسم الدين كذلك ، وكل ما هو معروف للناس يخضع لوجهات النظر أو للقابلية الشخصية الا سلامة الجماعة وسلامة مبادئها الداعية للكفر بما حولها .

فعلى الفرد من القرامطة أن يحقق أهدافه وأن يشبع حاجاته ، وعليه أن يعيش مع رفاقه مع الاعتراف لهم بحقوق متساوية ، وأما الجماعة القرمطية فتتعاون فيما بينها لضمان مصالح أفرادها ، وللاستجابة لمطالبهم ، ولا تعرف للآخرين من غيرها حقا معها الا أن يكونوا عند ارادتها في حالتي الغضب والرضا . ما كان القرامطة اذن جماعات مثالية[٨٤] وانما كانوا جماعات واقعية ، تؤمن بحق الفرد والجماعة من داخلها ، وتمارس الحرية بجميع مظاهرها ، سواء الراقية منها والكالحة في وقت واحد .

لم يعرف القرامطة الشيوعية المطلقة[٨٥] ولا الملكية الانانية ولا الاحتكارات المستغلة ، لاباحية مشاعة ، ولا تشديدا على تحريمها في الوقت ذاته ، فقد يمارسها ذوو الرغبة فيها ، أو من يجدون السبيل اليها ، وقد لا يمارسها الكثيرون ولا يرضون بها ، وعلى الجميع أن يعيشوا حياتهم مع الرضا بالمتاح فيها .

مجتمع منطلق أو شارد ، يسعى نحو أهداف غير واضحة ، فيه دارسون لهم علم ودراية[٨٦] وفيه جاهلون لهم اندفاعات فاسدة ، وفيه متعبدون يتركون وشأنهم وفيه ملحدون لا يؤمنون بشيء ، وفيه غير هؤلاء كثيرون لا تعرف أحوالهم ، وليس للدولة سوى ذلك رأي بالنفي او الايجاب حول هذا السلوك أو غيره ، اذا لم تكن تلك الدولة تقف أمام الدراسة[٨٧] للتأمل والفهم والاستفادة أو أمام العبادة للممارسة أو التشجيع أو الرفض ، وانما كانت تتجه بجهدها نحو الأمن والأمان والاستعداد لمواجهة الاخطار واستلاب المغانم من الأعداء ، وكأنما لم تكن تتبنى نظاما يخدم الدين ويرعى شئونه ، ولم تكن كذلك تسعى لهدم الدين والهجوم عليه ، فهي لا تبني المساجد[٨٨] ولا تشارك في بنائها ، ولا تنصح ببنائها ، ولا تعترض على تهديمها ، ولكنها مع ذلك لا تعادي الراغبين فيها أو العاملين من أجلها .

لم يكن عند القرامطة فيما يبدو التزام حول الدين ، فقد يترك المتعبدون مع عبادتهم ، وقد يعفى الراغبون من قيود العبادات كذلك ، وهم في الحالين لا يعدمون أن يجدوا لأنفسهم تعليلا يناسب أذواقهم وتقبله عقولهم ، ثم هم يبيحون النهب لجماعتهم ولا يعارضون التعدي على حرمات الغير .

ويقولون ان السلطة في الاسلام توفيقية ، ويشيعون أنهم يعملون لخدمة قيادة سرية تبحث عن حقها الضائع في دنيا المسلمين ويكسبون بذلك حماس الجماهير ، ولكنهم مع ذلك يخرجون على هذه القيادة ، ويرفضون طاعتها ، بل ويحاربونها بزعم

خروجها عن الاستقامة ، او بعدها عن الصواب .

واذا كان الدين يعنى الخضوع لله والخوف منه ، وأداء العبادات ، ومراقبة الضمير وحسن السير والسلوك ، والتعاطف البشري ، ورعاية حقوق الاقربا[٨٩] والالتزام بالقيم ، والتحلى بمكارم الاخلاق[٩٠] فهذه كلها امور لا تعنى بها الدولة ، ولم تكن تقف عندها ، وانما كانت حريصة على الوفاء بحاجات الفرد والجماعة ، ورفض كل ما يأتى من خارج هذه الجماعة والاستعداد لقهر الأعداء في الحروب .

ليس هناك اذن عمل لما بعد الموت ، والجهد كله لما يخدم الحياة الدنيا كما كانوا يفهمونها . ولم يكن رئيس الجماعة عندهم اقرب من غيره لله ، ولا احرص الناس على الوفاء بحقه ، فقضايا الدين كانت مهوزة عند الكثيرين منهم ، وهى عند الزعامات - فيما غيرها - فى دوائر الشك والانكار وليس رئيس الجماعة اقربها لصاحب السلطة المستور[٩١] ، وليس أشدها حرصا على تحقيق غايات بعيدة الرؤية عند العامة ، وانما هو اعظمها جرأة على الاعداء ، وأكفؤها بطولة في الحرب ، وأكثرها حيازة لشروط القيادة ، وأقواها انصارا بين الطائفة ، وذلك رغم انه يشيع طول الوقت أنه موكل من صاحب الدولة ، وانه يحظى بالرضا من سلطة عليا ، وان اعماله من اجلها ، وحياته لصالحها .

هو بين جماعته شخص جسور ، يلتزم الحق المتعارف عليه ، ويتعاطف مع الجميع ويعدل في الخصومات ويعرف حق الرفاق ، وينصح بما فيه خير الجماعة[٩٢] . تقضى حاجة الفقير عند القرامطة ، ورغبة العاجز مستجابة ، وخدمات الدولة لكل الرفاق لا يظلم أحد شيئا ، لا يدفع العاجزون ضريبة ، وتقضى الدولة ديون الغارمين ولا ينبغى لأحد أن يغش أو يحتكر ، ويلتزم الكل بأداء الواجبات .

تعرض لحوم الحيوانات فى الاسواق للناس ، على أن توضع رأس الذبيحة وجلدها أمام الراغبين فى الشراء منها ، حتى لا يخدع انسان فى شىء لا يريده ، وليس هناك بعد ذلك شىء آخر[٩٣] . فلا يقال لشخص كل من هذا اللحم أو غيره ، ولا يقال لآخر لا تأكل منه لأى سبب يكون ، وانما توجد اللحوم المباحة والمحرمة فى الدين لا تفرض على أحد ، ولا تمنع من أحد .

وساد المنطق المبيح لكل شىء دون الزام به أو تنفير منه فعلى المرء أن يأخذ من الشىء اذا رغب فيه ، او اذا وجد فرصته اليه ، وله ان يترك ما لا يريده بدافع من ميوله ، فليس هناك تشريع بالاباحة أو التحريم ، كل شىء مباح اذا أراده الناس برغبتهم ، وليس هناك حرام الا ما يعطل وجود الدولة أو يضعف تماسك الجماعة .

سئل أحد القرامطة عما اذا كانوا يبيحون النساء على الشيوع ، فأنكر ذلك ورفض الاعتراف بوجوده ، ولعله كان صادقا فى رفضه وانكاره ، لأنه لم يكن يعلم حدوث مثل هذا الشىء فى طائفته ولم يشارك فيه فى حياته ، ثم هو لا يناسب ذوقه ، ولا يرى أنه يناسب الأذواق السوية عند غيره ، وقد يدرك أنه مرفوض فى ذوق سائله ، وكأنه بذلك لا يكشف عن سلوك الجماعة ، ولا يجيب برأيها ، لأنه يعيش حياته مترفعا عن هذا السلوك الفاسد ، ويترك للآخرين حياتهم الخاصة[٩٤] .

وسئل آخر هل كنتم تبيحون الزواج بالمحارم ؟ فقال ان الاغبياء هم الذين يحرمون أنفسهم من متع شاركوا فى وجودها ومن جمال أسهموا فى رعايته واما الأذكياء

مثله فلا يرون فى ذلك حرجا أو غضاضة وربما كان عندهم أولى بالقبول من غيره ، وهو كذلك صادق فى التعبير عن رأيه ، لأن الزواج بالمحارم كان يوافق ذوقه ويناسب مزاجه ، ليس للدولة رأى فى هذا أو ذاك ، فهى لا ترفض شيئا ولا تفرضه .

لقد ماج مجتمع القرامطة بأمور غريبة او شاذة ، وقد تكون متضاربة أو متناقضة ، فكان هناك من كان يعرف عنه انه من اتقى الناس ، وكان هناك ايضا من كان يرى من أسرع الناس الى البـاطل[٩٥] ، لقد ذكر المتحاملون عليهم أنهم كانوا يغيرون ، وأن رؤساءهم أسقطوا عنهم العبادات كلها ، ومع ذلك لم يكن هناك من كان يعاقب على الوفاء بحق الله عليه ، لأن الجميع عاشوا مع الحرية فيما يخصهم ، وليس للدولة معهم الا أن تدافع عما يخصها ، والا أن يستجاب لها .

وربما كان مجتمع القرامطة مكشوفا من داخله ، او لعله كان يعيش مع الصراحة فى علاقاته الاجتماعية ، أو كان يعيش مع الحرية فى تناوله الشخصى لأنه كان يرفض القيود ويمقتها .

وصحيح أن القيود قد تكون ضرورية ولازمة ، ولا بد منها فى أحيان كثيرة ، وان الحرية لا ينبغى أن تكون هكذا مطلقة كما عرفت داخل المجتمعات القرمطية .

ولكن مثل هذا النمط من السلوك تعيش معه المجتمعات السوية ، او المجتمعات الآمنة التي تعرف الحياة الخالية من الاخطار والأزمات .

وليس المراد هنا الدفاع عن القرامطة المعرضين للنقد طول الوقت ، وليس المراد كذلك الطعن فيهم ، اذ من المهم أن نقدم عنهم صورة تقريبية تكون المسئولية فيها على المؤرخين قبل غيرهم ، ثم نحاول تفسيرها بالموضوعية الممكنة . وليس من الضرورى بعد ذلك تقييم هذه الصورة ، أو الحكم عليها برأى أو بآخر .

فاذا كان قصد الزعامة القرمطية فى دولة القرامطة بالبحرين أن تضع الجماعات التابعة لها عند الهدف المقصود من وجودها ، فقد استجاب لهم الكثيرون واسترخصوا الحياة معهم ، وكسبوا انتصارات عائلة باسمهم ، فأصبحوا بهذا التأييد قوة كبيرة فى عالمهم .

لقد وجد الكثيرون من مؤيديهم اقتراب الأمل فى تحقيق رغباتهم بالتحلل من القيود الدينية وغيرها ، فناصروهم ، وشاركوهم حياتهم ، وهكذا يكون سلوك الغالبية فى مثل هذه المجتمعات المتخلفة ، لأنها قد ترى فى التوجيه نحو الخير قيودا ، وترى فى القيود سجنا ، وقد ترى فى النصيحة وسيلة مرفوضة لأنها قد تعنى الذل والتسلط وهى تريد أن تنطلق مع وجودها المتحرر وأن تمارس حياتها بكل أبعادها .

واذا كانت النظم الاجتماعية المتطورة توجه الناس بقيود تفرضها ، أو بنصائح تعلنها فانما يكون ذلك لأنها تريد الحياة الأرقى ، وتسعى نحو الأحسن[٩٦] ، ولا يعنى الحسن عادة الا رفعة الحياة ورقيها ، ومحاولة القرب من غايتها المثل . وأما القرامطة فلم يشغلوا أنفسهم بترقية الحياة أو بالسعى نحو غايات مثلى ، وانما كان يشغلهم تكوين جماعة محاربة تستجيب للنداء عند الحاجة[٩٧] .

وهذا يعنى وجود أوساط متخلفة ، تشغلها حاجاتها الدنيا ، ولا تصبر على الحرمان منها ، فاذا وقت الدولة بأداء هذه الحاجات ، وهيأتها للراغبين فيها كان ذلك يعنى تعاطفها مع مواطنيها ، ويعنى ايضا استجابة مواطنيها لرغباتها فى المقابل وكأنما ساد بين الطرفين ما يشبه تبادل المصالح عن طريق الأخذ والعطاء ، دون النظر فى قيمة

هذه المصالح ومستواها ، وبعد ذلك تسهل القيادة ، وتتحقق الاستجابة وبعيش الناس حياة تناسب تطلعاتهم أو ميولهم ، فالحب أو التقدير في مثل هذه الحال يأتي عن طريق الاشباع ، وليس عن طريق الادراك والوعي ، أما فهم المواقف الصعبة واحترام الاتجاهات الهادفة ، والرغبة في التضافر لاشاعة القيم الرفيعة ، والسير مع التوعية المفيدة والتعاون من أجل المثل العليا ، فهذه أهداف تسعى لتحقيقها المجتمعات السوية .

فقد قبل أن زعيم القرامطة أعفى الناس من التكاليف الدينية فبلغ حماسهم للتخلي عنها انهم لم يسألوه ان كان له الحق في ذلك أم لا ، ولم يسألوا انفسهم لماذا يضعونه في مقام الالهة أو في منزلة المشرعين[٩٨] ، لقد وجد الرافضون في التحلل من القيود الدينية حماستهم في هذا الاعفاء ، فاسرعوا الى قبوله . ونفهم ان زعيم القرامطة لم يكن يدرك انه مسئول عن حماية الدين واركانه ، او لم يكن يعترف بهذه المسئولية ، او لعله لم يكن يريدها لانه لم يكن يعرف للدين في ذاته قيمة . واذا قبل انه أباح لاتباعه النهب والتعدي على الحرمات فما كان هناك من يرفض هذه الاباحة أو يعترض عليها[٩٩] .

لقد حاول هذا المجتمع المريض أن يبتعد عن رقابة الضمير في حالات كثيرة ، أو في تعامله مع غيره خاصة ، أو نقول انه كان يفتقد الضمير في علاقاته بخصومه ، وكانت قيادته غوغائية ، وجدت فرصتها في زمانها ، وأدركت حقيقة الحال من حولها ، فقادت جماعات غافلة نحو انتصارات ثبتت كيانها وحسبت في صالحها ، وكانت الاستجابة لها حماسية وقوية .

***

لقد كتب من لم يزوروا القرامطة في البحرين عنهم شيئا كثيرا ، تحت تاثير الشعور بالكراهية ، واستجابة لروايات متناقلة ، وبعض هذه الروايات كانت تصوغها الاغراض وتلونها وجهات النظر المعادية ، وحاول الكثيرون أن يشيعوا الفساد عن هذه الطائفة وأن يقنعوا الناس ببعدها عن الدين كله .

وجاء آخرون فانكروا هذه الدعوى بحجة أن نظاما ما لا يستطيع البقاء بين الناس طول هذا الزمن مع هذا الفساد[١٠٠] .

وقال من زاروا القرامطة[١٠١] ، وحاولوا النظر اليهم بنوع من الموضوعية ، انهم كانوا يعرفون النظام كما كانوا يفهمونه ، ولم يكن مهما عندهم ان يقبله غيرهم او يرفضه ، وقالوا انهم كانوا يعرفون الحرية والاخلاص للزعامة ، والتعاون على الحياة ، وكفالة أصحاب الحاجة ، وأن مجتمعهم كان مثل غيره له محاسنه ومثالبه وليس فيه ما يثير الاسى الا قلة المساجد[١٠٢] ، او انعدامها في مكان او آخر والا عرض اللحوم النجسة في الأسواق العامة[١٠٣] .

وهذا يعني أن خصوم القرامطة ، ومن عاشوا مع الخوف بسببهم ، أو من منهم كانوا خارج بيئتهم يتوقعون الشر منهم كانوا يسرفون في تقدير مواقفهم ، وكانوا يلونون هذه المواقف حسب أهوائهم .

ثم كان القرامطة من جانبهم يريدون أن يشاع عنهم انهم يعيشون مع اليأس ، وانهم مغمومن بالسخط على غيرهم ، وانهم يؤمنون بأنفسهم ويكفرون بمن سواهم ، وكان هذا من اهدافهم ومما يكشف عنه سلوكهم ، فشاع الخوف منهم ، وحلت الفوضى في المناطق المجاورة لهم وكان الخوف منهم يساعد على انتصارهم ويدنيهم من اهدافهم[١٠٤] .

لقد كان القرامطة قوة كبرى في عالمهم ، ولا نعني بالقوة مظاهرها المعروفة مثل كثرة العدد ، وجودة العدد ، وانما نعني بها

حيازة الوسائل المؤدية للانتصار ومنها الدعاية الكفيلة بتحطيم معنويات الخصم ، واللجوء الى الحرب النفسية والرغبة في تحقيق الغايات بوسائلها والدفاع عن الاهداف بالتضحية ، ومحاولة اثبات الوجود بالقوة عند الضرورة .

فاذا كان من الممكن مقارنتهم بغيرهم من الحكام في عصرهم مالت المعادلة الى جانبهم ، واكدت ضرورة تفوقهم .

***

وبعد فهذه محاولة لعلها صحيحة او مقبولة لتفسير الروايات الغريبة التي تعرضها كتب التاريخ او أكثرها حول قضية القرامطة في البحرين وكلها تلح في الطعن عليهم ، وتشترك في الخصومة ضدهم[١٠٥] ، وكأنها روايات ثابتة او مؤكدة ولا يمكن معارضتها او الشك فيها .

***

وكان على الثوار في البحرين مهما اختلفت مشاربهم ومذاهبهم واهواؤهم أن يبحثوا لانفسهم عن تبرير مقبول يكسبون به الشرعية الدينية لوجهات نظرهم أمام الجماهير المسلمة ، ولذلك التمسوا الوسائل الممكنة والدعاوى المناسبة لهذه الجماهير ، فكان الخوارج يزعمون أنهم أولياء لله من دون الناس ، وأنهم اشتروا انفسهم ابتغاء مرضاة الله[١٠٦] ، وأنهم يعرفون الاسلام كما لم يعرفه غيرهم ، وكان الزنج والقرامطة يعلنون ولاءهم الصريح لآل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليس مهما بعد ذلك ان تختلف نسبة الصدق او الزيف لهذا الولاء عند هؤلاء واولئك في فترات من الزمن .

وكان على الثوار كذلك أن يبحثوا لانفسهم عن بيئة اجتماعية ملائمة ، وحدث ان كانت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية ملائمة لظهور هذه الثورات في مناطق البحرين اكثر من غيرها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري .

فبعد الفساد السياسي ، والضعف العسكري ، والانهيار الاقتصادي في دولة العباسيين بالعراق في ذلك التاريخ عاد البدو العرب في كثير من بلاد العرب الى حياتهم الاولى ، بمعنى رفض القيود ، والتحرر من ضغط السلطة ، والخوض في الخصومات القبلية ، ودفعهم لذلك فقدانهم بعض مصادر رزقهم الثابتة ، فبعد ان كانوا يرون انفسهم جنودا توضع أسماؤهم في قوائم العطاء بالدولة ، ويحصلون على رواتب ثابتة حسب درجتهم في خدمتها ، اسقطتهم هذه الدولة من حسابها ، ودفعتهم للبحث عن مقومات حياتهم الاقتصادية بوسائلهم ، ولذلك وجد فيهم القرامطة وغيرهم فرصة صالحة فاستثاروهم واقمعوا انفسهم بالغضب والرغبة في الانتقام واسقطوا اثر الاسلام الضعيف من قلوبهم ، ولم يبقوا على شيء لصالح الدين وقيادة المسلمين عندهم .

وكانت الأوضاع الاقتصادية كلها غير مرضية ، أو لعلها كانت مؤسية ، اذ كان يقوم بأمور الزراعة في أماكن كثيرة من لا يحسنون[١٠٧] القيام عليها ، واحتكرت التجارة أيد قليلة محترفة ، وانتشر بالنطقة فكر ديني يتبع المذهب المعارض للعباسيين ، وكان هذا الفكر يتبنى قضية العدل الاجتماعي ، وينمي تيارا عقليا يخاطب الجماهير الغاضبة بما يناسبها ، او بما يزيد في ثورتها ، وتولى قيادة هذا الفكر الشورى جماعة الاسماعيلية الشهيرة ، وحاول هؤلاء جهدهم استقطاب العناصر الساخطة في كل مكان .

ومن الصحيح انه لم يكن مهما عند أي من هذه الجماعات أن تكون صادقة فيما تدعو اليه او لا تكون ، وانما كان المهم أن

تحظى بالنجاح في ايقاظ الحماس بين الجماهير المعارضة أو اشعال نار الغضب في نفوسها .

وعرف عن القرامطة ـ ولهم صلة وشيجة بالحركة الاسماعيلية التي عمت مساحات واسعة من بلاد المسلمين آنذاك[١٠٨] ، انهم كانوا يعلنون عن ولائهم للفاطميين في شمال افريقية وفي مصر بعد ذلك ، الا أن ميولهم كانت تتذبذب مع العباسيين أحيانا كثيرة ، وفقا للمصلحة ، وحفاظا على الدولة .

ويشير التاريخ الى أنهم لم يترددوا في الهجوم على أراضي الدولتين العباسية والفاطمية اذا سنحت لهم الفرصة ، ثم كانوا في الوقت نفسه يطعنون في كل النظم والقيادات والاديان ، وقيل أنهم كانوا يرون كل المصلحين حتى الانبياء يمثلون زعامات خادعة تحاول استعباد الناس بدعاوى لم يقم دليل على صحتها .

●●●

لم يكن هناك اذن ولاء معروف عند القرامطة لأي من العباسيين أو الفاطميين غير ان العباسيين كانوا في حال ضعف معروفة ، وعند مجال الرؤية المباشرة ، لذلك وقعوا تحت النقد وتعرضوا للتجني فاوسعهم الاعداء ذما ، وبدا كأن القرامطة كانوا يعملون لخدمة أغراض الفاطميين خاصة ، مع أن الحقيقة كانت في جانب آخر ، وهي أن ولاء القرامطة أنفسهم كان فوق الشبهات ، وفوق كل ولاء يمكن تصوره لأي جماعة أو أي نظام ، ولعل ايمانهم بأي من الطرفين المتنازعين[١٠٩] ، في بلاد المسلمين في ذلك الوقت لم يكن في مستوى واحد وأن ميلهم كان الى جانب الفاطميين أقرب[١١٠] ، وخلال مراحل طويلة من فترات حكمهم ، الا أن اعترافهم بنوع من التبعية لأي من الجانبين لم يكن يعني نكران الذات أو تجاهل المصالح ، وأما التبعية المطلقة لأي منهما فكانت غير واردة ، ولعلها تكون مرفوضة طول الوقت ، وان أمكن التغني بها أو الاعلان عنها لتحقيق غاية عاجلة أو لشيء تأتى به الأيام .

ومن الصحيح أن قيام الدولة الفاطمية كان يعني نوعا من الاستجابة لرغبات الباحثين عن ترضية العواطف تجاه آل الرسول ، ولكن القرامطة وان حاولوا السير في هذا الاتجاه استجابة لبعض الميول والرغبات السائدة في مناطق الخليج العربي الا أنهم كزعماء أو قادة ، أو غير هؤلاء من اعداد كثيرة كان يمثلها الاعراب المناصرون لهم ، ما كان لهذا الولاء عندهم قيمة حقيقية في أوقات كثيرة .

لقد كان ضروريا لمن أعلنوا الدعوة القرمطية في البداية من أن يظهروا نوعا من الارتباط بالاتجاه الغالب في المحيط العام ، وفي البيئة الخاصة بالبحرين ـ وكانت الدعوة الاسماعيلية قد فاقت جميع التيارات المذهبية المعروفة في بلاد المسلمين في ذلك الوقت ـ لأن ذلك كان يخدم أهدافهم ، ويحقق مصالحهم ، وبعد أن علا شأنهم ، ونجحوا في تثبيت وجودهم لم يقفوا طويلا أمام التزاماتهم السابقة ، ولم يروا من واجبهم مواصلة التعاون مع من أعلنوا الوفاء لقضيتهم .

ثم أصبح واضحا ان كل النظم السياسية اتجهت الى الاعتدال مع مواطنيها ، ولم تسرف في التعامل مع خصومها ، ومعنى ذلك أن البدايات الحماسية عند هؤلاء وأولئك انتهت الى الحال الوسطي ، لأن ذلك كان ضرورة ملحة ، كما كانت البداية الحماسية ضرورة ملحة أيضا .

لقد عجز العباسيون عن الصمود أمام القرامطة ، فتعرضوا لغاراتهم العاتية ولكثير من مظالمهم ، بل وكانوا يشترون رضاهم

بالمال لفترات تطول أو تقصر ولما لم يستطيعوا الوصول معهم الى حل مقبول حاولوا تجربة طرق أخرى كان منها تنمية الخصومات الداخلية بينهم ، وضرب بعضهم ببعض[١١١] .

واما الفاطميون فكان من صالحهم أن يشاع حولهم انهم مؤيدون من أنصار اقوياء في البحرين وفي غيرها من بلاد العرب[١١٢] ، وكانوا من جانبهم يسهمون في اذاعة هذا التأييد ، وذلك لافهام الآخرين أن الكثيرين يعملون من أجل قضية عادلة ، هي قضية آل الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولكن الود المعلن بين القرامطة والفاطميين لم يكن له مكان في قلوبهم الا عندما كان كل منهما في مكانه من مناطق النفوذ ، بمصر والبحرين ، وعندما تقارب الطرفان وتقابلا على أرض الشام لم يحتمل أحدهما الآخر ، أو لم يفسح أحدهما مكانا لصاحبه فازدادت بينهما الخصومات واشتعلت نيران العداء[١١٣] ، وكان السيفين لا يجتمعان في قراب واحد كما يقول المثل عند العرب .

وفي الحرب قتل القرامطة واحدا من أشهر قادة الفاطميين[١١٤] ، في بلاد الشام ، فغضب لذلك المعز لدين الله الفاطمي سنة ٣٦٢ هـ ، وكان من مظاهر غضبه رسالة مسهبة[١١٥] صب فيها جام سخطه على القرامطة ، وهددهم بالطرد من صفوف الأولياء ، وبالنصر عند اللقاء ، فكان رد القرامطة نوعا من الاستهانة بالرسالة وصاحبها[١١٦] ولم يبق الا أن يقيم كل منهما في مكانه بالبحرين وشمال افريقية .

●●●

لقد اشتهر أول زعيم للقرامطة في البحرين باسم أبي سعيد الجنابي[١١٧] ، وكانت عنده قابليات عسكرية هائلة[١١٨] ، فاتخذ لنفسه دار هجرة[١١٩] ، في منطقة الاحساء سماها المؤمنية ، وأخذ يغير منها على جنوبي العراق وعلى طرق القوافل في بلاد العرب وانتصر على العباسيين سنة ٢٨٩ هـ وأباد لهم جيشا كبيرا أسرف في التنكيل به وامتهانه[١٢٠] ، ثم اغتيل أبو سعيد هذا لدوافع ثأرية غير معروفة أبو بتحريض من الفاطميين لأسباب مجهولة سنة ٣٠١ هـ ، فجاء بعده ابنه أبو طاهر سليمان وكان ـ كما تقول الروايات عنه ـ شيطانا من البشر ، شغل وقته وجماعته بالغارات المستمرة على ممتلكات العباسيين ، وعلى طرق القوافل في الصحراء ، وعلى القادمين الى مكة بغرض الحج أو العمرة ، وفي ذروة اغتراره بنفسه دخل بجيشه مكة سنة ٣١٧ هـ ، فكان يعتدي على حياة الناس ، وعلى حرمات الدين ، وأخذ يمارس في الحرم هوايته في الكشف عن احساساته المعارضة لاتجاهات المؤمنين ، فكان يستهين بمناسك الحج ، ويصف الطائفين حول الكعبة بالضلال والحيوانية[١٢١] ، وينكر أن يكون لمثل هذه العبادة معنى أو غاية ، أو أن يكون لله بيت في الارض .

ولم تكن دوافعه لمثل هذا التعدي الا الاعلان الصارخ عن الفراغ في السلطة في بلاد المسلمين ومحاولة التقليل من هيبة الحكام العباسيين .

ثم ازدادت تصرفاته خطورة عندما انتزع الحجر الأسود من مكانه ، بدعوى أنه يمثل نوعا من الوثنية البائدة ، ولم يعبأ بالعواطف المتعلقة به ، ولا بتوسلات الملحين عليه في طلب تركه ، ولا يعرف ما اذا كان القرامطة قاموا بهذه المحاولة بدوافع شخصية أو بتوجيه من الخارج[١٢٢] ، والمعروف أن أبا طاهر هذا رجع الى مكانه في البحرين بالغنائم الكثيرة والاسرى المنهكين[١٢٣] ، واستمر الحجر المقدس بعيدا عن مكانه مدة تزيد على عشرين سنة .

ثم رد الى موضعه سنة ٣٣٩ هـ بعد اتفاق البويهيين ذوى النفوذ فى بغداد[١٢٤] ، مع القرامطة حول امور كانت تثير الخلافات بينهم[١٢٥] ، او بعد ان امرهم الفاطميون بذلك ، وكان للفاطميين هدف غير معلن من اختفاء هذا الحجر فى البداية ، ومن ارجاعه فى ذلك الوقت ايضا ، لانهم - كما يقال - قصدوا ان تهتز ثقة الناس فى العباسيين ، وان يدركوا ان الفاطميين وحدهم كانوا القادرين على حماية مثل هذه المقدسات[١٢٦]

ولا شك ان خصوم العباسيين لم يترددوا فى ركوب الصعب ، وعمل كل ما يدنيهم من اهدافهم ، ولم يكن عندهم ما يفوق رغبتهم فى اضمحلال الثروة[١٢٧] ، ثم كانت تثيرهم عداوات قاتلة .

واذا عجب الكثيرون من أن أحدا لم يغضب بما يناسب تعدى القرامطة على حرمات الدين فى مكة فان هذا العجب يفقد معناه اذا قيل ان المجتمعات عاشت حينئذ حياة مضطربة ، وانها كانت مقسمة الى قطاعات متنافرة لأن القرامطة اسهموا فى زيادة حدة الصراع بين المذاهب الدينية ، وبموا الشعور بالانعزالية ، وأفسدوا العلاقة بين المواطنين والدولة ، فكان هناك كثيرون يبحثون عن الامن بالبعد عن الصراعات المذهبية ، وكثيرون يجدون الراحة فى التخفى والسلبية .

واما العباسيون فقد استمر عجزهم فسكتوا على المكروه ، وخضعوا لما يخضع له المستضعفون[١٢٨] .

لقد قامت دولة القرامطة فى البحرين سنة ٢٨٦ هـ/ ٩٠٠م وواجهت الاحداث حتى سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦م ، وكان رئيسها يؤدى دور الزعيم الأول فى صف جماعة من الاقران يعرفون بالسادة ، ويتبع هؤلاء السادة جماعة من المستشارين يعرفون بالوزراء وللجماعتين بعد ذلك أنصار يسمون العقدانية ، وهؤلاء كانوا يشكلون ما يشبه مجلس الشيوخ فى دولتهم ، ثم كان هناك بعد ذلك درجات أخرى يوضع فيها الناس حسب قربهم لا حسب كفاءتهم .

واستمر شريان الحياة يجرى فى أوصال تلك الدولة طول هذه المدة لتوفر دخولها المالية[١٢٩] . حتى جاءت النهاية فى غير صالحها فانهزمت أمام الفاطميين فى معارك شبه حاسمة سنة ٣٦٨ هـ ، وبعد الهزيمة اختلف القرامطة على قائدهم الحسن الأعصم[١٣٠] ، وانصرفت عنهم طوائف من جيشهم ، وتجرأت عليهم قيادات ناشئة فى مناطق البحرين نفسها ، وكان منها القائد عبدالله بن على العيونى مؤسس الدولة العيونية بالاحساء[١٣١] ، فقد انتصر هذا القائد على القرامطة سنة ٣٧٨ هـ ، وخرجت عليهم كذلك أجزاء واسعة من البحرين منها امارة بنى الزجاج فى جزيرة أوال[١٣٢] ، بقيادة أبى البهلول العوام بن محمد بن يوسف الزجاج فقد أسهمت هذه الامارة بجهدها فى اضعافهم وقربت نهايتهم بعد أن أبعدتهم عن الاتصال بالعالم ، وخربت بعض موانيهم .

الهوامش

(١) لقد استمر هكذا فهم التاريخ لفترات طويلة من الزمن ، أو نقول أن تاريخ العرب لم يتحرر من هذا الفهم الا بمحاولات تبدو عاجزة حتى اليوم .

(٢) كان القرشيون ادعياء فى زعمهم التمسك بالوثنية العربية ، ولعلهم كانوا أبعد الناس عن الايمان بها

(٣) كانت الحياة البدوية تغلب على مساحات واسعة من بلاد العرب الشمالية ، ولم يخف ضغطها الا عن مناطق قليلة نجحت فى اقامة نظم سياسية متطورة .

(٤) يلاحظ ذلك بوضوح فى دولة البحرين المعاصرة .

(٥) لا نقول ان سكان البحرين تعرفوا على الاسلام وقبلوه بعد الدراسة والنظر والمقارنات ولكننا نقول ان هذا الدين بدا قويا ومشرقا ومفيدا منذ لقائهم به فى المراحل الاولى .

(٦) انتصح انتصار الاسلام بعد صلح الحديبية سنة ٦ هـ لان شروط هذا الصلح كلها كانت تكشف عن ضعف خصومه .

(٧) بعث العلاء الحضرمى للرسول مالا كثيرا لم ير مثله قبله أو بعده . وجاء ابو هريرة للخليفة عمر من الخطاب من البحرين بمال كثير قدرته الرواية بخمسمائة الف . وكان الخليفة نفسه يتهم واليه بعد أن اعلمه به بالاندفاع فى الشطط ، أو بعدم الادراك .

(٨) لا يؤمن بالأديان عن دراسة لا بعض الراغبين فى قبولها ولا تشير اعدادهم عبر الزمن الى وجود ظاهرة عامة .

(٩) عرف من اصنام العرب المشهورة فى البحرين : ذو اللبا ، وكان بالمشقر . وتعبده عبد القيس واوال وهو صنم لبكر وتغلب ابنى وائل . وسميت جزيرة البحرين باسمه وعرف كذلك هناك صنم باسم المحرق . وكلها كانت عند مراحل الانهيار عند ظهور الاسلام .

(١٠) وتلك كانت فرصة الاسلام فى هذه الاوساط التى لم تؤمن بعقيدة ولم تشغل نفسها بالنظر فى الاديان

(١١) لم يكن النشاط الدينى لابراهيم الخليل فعالا أو مؤثرا فى بلاد العرب . ثم كان دور ابنه اسماعيل بعده محدودا لم يحرك السكون السائد فى عهده .

(١٢) أما الصراعات المعروفة بين الأديان فى بلاد اليمن فلم تكن دوافعها كامنة فى الخلافات العقائدية وانما كانت بسبب خلافات سياسية ، ومنافسات تجارية وخصومات دولية .

(١٣) ولقد عرضهم هذا التصرف للخطر أمام الدولة البيزنطية التى كانت لها وجهات نظر دينية مخالفة .

(١٤) ليس فى التاريخ ما يؤكد ان الرسول نفسه استمع لخطبة قس بن ساعدة المشهورة فى سوق عكاظ .

(١٥) لم يكن هذا العجز بسبب تسامح المسيحية كما يقال فقد عرف التسامح فى الاسلام ايضا وانما كان بسبب السلبية ونعنى بها اللجوء للمواعظ والاتكال على الزمن والتعامل بالصفح مع من لا يدركون قيمته

(١٦) عرف الكثير عن تسامح المسيحيين ولكن هذا التسامح كان محسوبا عليهم فى حالات كثيرة كانوا فيها ضعفاء لا يملكون القدرة على الانتقام بوسائله .

(١٧) ربما كان المنذر مسيحيا بالاسم فقط . او ربما كان لا يزال فى بداية الطريق الى المسيحية ، وقيل ايضا انه كان مجوسيا او قريبا من المجوسية - ليس هناك وضوح حول هذه القضية - والمعروف انه قبل الاسلام بعد عرضه عليه . ولا يفعل ذلك صاحب دين فى العادة .

(١٨) ظهرت المجوسية بايران فى القرن ٧ م . وكانت ترى ضرورة التفريق بين قوى الخير والشر ، وتحاول نصيحة الناس بالتزام الوسائل المؤدية لسيادة السلام على الارض ومنها : اجادة العمل والاخلاص للجماعة وحب الوطن وزيادة النسل والاعتراف بالطبقية

(١٩) عرفت هذه الدولة باسم الدولة البيزنطية او دولة الروم او الدولة الرومانية الشرقية وكان لها وجود فى المناطق الاوربية والاسيوية عند اتصال اوربا باسيا منذ بداية القرن ٤ م . ودخلت مع المسلمين فى خصومات طويلة فانتزعوا منها اعظم مقاطعاتها الشرقية ثم قضى عليها السلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م

(٢٠) والقصة طويلة ومعقدة حول ثورة المانوية وبعدها المزدكية على المجوسية ديانة الفرس الرسمية .

(٢١) ليس هناك وضوح حول شعبية هذا الحاكم لكل من الفرس والعرب المنافرة . ولعله كان موالياً للعرب ومدركا لحساسية موقفهم مع الفرس فى الوقت نفسه . وكان هناك مجانبه فى البحرين من كان

يمثل المصالح الايرانية واسمه سيبخت مرزبان هجر

(٢٢) تحلت جاذبية الاسلام خاصة في مبادئه وواقعيته ، وفي انعكاسه من داخل البيئة وفي دعوته للانعتاق من سلطة رجال الدين كذلك . ثم ان هذه الجاذبية كانت تختلف من مكان الى اخر فمما اثار انتباه الناس بالاسلام في مصر انه ابقى على الارض مع أصحابها ودعا للتسامح الديني واهتم الايرانيون بالاسلام في البداية لانه احترم الملكية ونظم الاسرة .

(٢٣) لم يهتم المسجيون بالتسامح الذي دعوا اليه المسلمون عند انتصارهم في اليمن فاصبحوا يتدفعون للانتقام من خصومهم ومن غير خصومهم ايضا فمن المعروف ان قبيلا تقدمهم لهدم الكعبة دون ان تكون بينهم وبين اهل مكة خصومة مباشرة .

(٢٤) تقول رواية تاريخية ترد بالحاح في عدد من المصادر حول البداية الحقيقية لعبادة الاصنام في بلاد العرب ان سيدا عربيا اسمه عمرو من لحي الخزاعي نقل حجارة من بلاد البلقاء الى جزيرة العرب ، وطلب من الناس ان يقلدوا الشامين في عبادتها فاستجابوا له واطاعوه . فاذا كانت امور العبادة عند العرب بمثل هذه البساطة فلا شك ان الوثنية لم تكن مأخوذة بالجد والاهتمام . ومما كان يضعف من خطورتها انها لم تكن تقيد شيئا كما لم تكن تطلب من احد شيئا في الوقت نفسه

(٢٥) دخلت المسيحية بلاد العرب في القرون الاولى من ظهورها ، وجاء الاسلام بعد ستة قرون من ظهور المسيح . فكانها اخذت فرصتها كاملة بين العرب .

(٢٦) هناك أمور هامة حققت انتصار الاسلام في كل مكان ومنها : الايجابية والصلاحية والقدوة والمناسبة والكفاءة وتعني الايجابية المرونة في التعامل والبعد عن السلبيات . وتعني الصلاحية النظم الصالحة لكل الازمنة والمواطن . واما القوة فهي حسن السلوك والخضوع للنظام . واما المناسبة فهي البيئة الصالحة والاوضاع المواتية . واما الكفاءة فهي ان يكون المرء عند المستوى المطلوب لمهمته

(٢٧) لا شك ان الحياة سلسلة من رغبات الكثيرين طول الزمن .

(٢٨) قيل ان الاسمنتية كانت نوعا من عبادة الخيل في الجزيرة . ولعلها كانت على درجة من عدم التاثير في البيئة بحيث يمكن التغافل عنها .

(٢٩) قال من لقناه الرسول هل الجن البحرين انهم لم يكرهوا على الاسلام . وانهم خرجوا الى المشرق وانهم لم يانوه من اجل الملق او بدافع الطمع .

(٣٠) قال الجارود بعد اسلامه ثابت العقيدة ، راغبا في الوفاء بحقها . فقيل انه استطاع التاثير في قومه بعد ردتهم وردهم الى الاسلام من جديد . وانه قاد جيشا للحرب ضد المرتدين في البحرين .

(٣١) ارتبط اسم العلاء بن الحضرمي بالبحرين لفترات طويلة . فكان داعيها الى الاسلام . وكان قائدها الى النصر في حرب المرتدين . وكان أحد ولاتها المرغوب فيهم . وقيل ان اهلها طلبوا من الخليفة ارجاعه اليهم بعد عزله .

(٣٢) يقول المسلمون ان من اعظم مواقف الخلفاء طول التاريخ موقف الخليفة ابي بكر امام المرتدين بعد وفاة الرسول .

(٣٣) هو الجارود بن بشر بن عمرو بن المعلى وكان واحدا من ذوي الكفاءات في البحرين .

(٣٤) قيل ان بعض الناس علقوا اسباب ردتهم بوفاة الرسول والرسول في رايهم لا تموت ثم استرجعوا الى الاعتراف بحوت الرسول فرجعوا عن مواقفهم . وفي هذا نوع من السذاجة او الغفلة المعيبة .

(٣٥) يسمى المنذر الغرور . ويقال انه حكم في الحيرة بعد عمه الاسود بن المنذر سنة ٦٣٤ م .

(٣٦) ارسل المسلمون المحاصرون للخليفة ابي بكر رسالة منظومة يطلبون منه النجدة العاجلة وفيها عبارات خوف واضحة ولكنها - فيما يبدو - تكشف عن الاتجاه للمبالغة . وهو شيء معهود في الشعر العربي .

(٣٧) لقد احاط بالمسلمين خطر داهم اثناء حربهم ضد المرتدين من بني حنيفة باليمامة ومن المعروف انهم هزموا للمجاهدين جيشا بعد الاخر . وانهم ثبتوا امام جيش خالد بن الوليد لفترات طويلة . رغم ما عرف عن هذا الجيش من بطولات وتضحيات .

(٣٨) بلغ نصيب الفارس من هذه الغنائم ستة الاف . ونصيب الراجل الفين .

(٣٩) اشتهر من زعماء العرب المرتدين مسيلمة الكذاب والأسود العنسي ، وطليحة الاسدي وسجاح التميمية

(٤٠) وكانت الدولة نفسها قد اتجهت للحرب ضد الفرس في اماكن اخرى .

(٤١) يقال ان المقاومة كانت قوية بين سعد بن أبي وقاص والعلاء بن الحضرمي . وان سعدا كسب بانتصاره في القادسية مكانة متميزة بين القواد المسلمين . بينما انزوى العلاء بعيدا بعيب فشله في حملته على بلاد الفرس في الصفوف الخلفية لهؤلاء القواد .

(٤٢) ظهر ان حروب المسلمين لم تكن عشوائية في يوم من الايام . وان انتصاراتهم لم تكن من ضربات الحظوظ السعيدة . وانما كانت نتيجة مفهومة او متوقعة لاوضاع عسكرية جيدة تحسب في صالحهم

(٤٣) نحن نقول مثل ذلك عادة بسبب ظروف الحجز التي تواجهنا . وكانت نلتمس تعجرنا تعليلا مقبولا . ولكن المسلمين في تلك العصور الزاهية ، ما كانوا يرضون بالحياة مع الفشل ابدا .

(٤٤) كان هذا الخليفة المجاهد يواجه محاولة كبرى يخشى فيها الفشل .

(٤٥) لا يبدو ان الخليفة امر هذا القائد بعدم الحرب فخالف أمره . وانما كانت اندفاعة حماسية يغلب عليها حسن النية

(٤٦) يتعاطف الكثيرون مع العلاء الحضرمي ويلتمسون لخطئه الاعذار . غير ان هذا التعاطف لم يكن واضحا في قلب الخليفة نحوه . وكان ذلك من بعض مظاهر قوته القيادية وكفاءته الادارية .

(٤٧) لو امرت الدولة بتلك المحاولة ثم فشل فيها العلاء لحاسبته عند فشله في حينه .

(٤٨) ولو هذه الحال يمكن التجاوز عن المخالفات في حالة النصر وحدها .

(٤٩) لم تكن حرب ابي بكر اقل عبرا من الحرب في الروم سنة ٦٣٦ م سببه وفاء الحرب للقضية المثلى فقط وانما كانت هناك دوافع اخرى دعت لهذه الحرب الشهيرة ومنها محاولة رفض الظلم والاستعداد للتضحية من اجل الحياة مع الحرية .

(٥١،٥٠) كانت الخصومات في ذلك الوقت تبيح للقوي تشتون الضعيف . كما كان من مفاخر الاقوياء ان يرفضوا الظلم عن غيرهم بينما هم يمارسونه على الاخرين من حولهم .

(٥٢) مما قيل عن بعض مظالم هذا الملك انه كان ينزع اكتاف العرب ثم يتركهم للموت مع العذاب

(٥٣) شهد بعض ولاة الفرس في البحرين عند ظهور الاسلام باسم المكعبر لانه كان يقطع ايدي العرب وارجلهم . وقيل ان قبيلة عربية كبيرة تعرضت في عهده للابادة فجرد ان بعضها اغار على اموال كانت مرسلة لدولة الفرس من بلاد اليمن .

(٥٤) كان ذلك يعني الامن للجميع . ونهاية العداء المتبادل بين الجانبين واستقرار القاطنين بتلك المناطق المضطربة . والاتجاه نحو بناء حضارة مشتركة .

(٥٥) قيل انهم كانوا ثلثمائة فارس . وهذا عدد كبير اذا كان من قبيلة واحدة .

(٥٦) اشتهر من القبائل العربية في البحرين عند ظهور الاسلام :

أ - عبد القيس وكانت تقيم بمساحات واسعة في البحرين ومن وفد على الرسول من زعمائها عبدالله بن عوف الاشج والجارود العبدي .

ب - جماعات كثيرة من بني وائل . وكانوا يوالون صنما معروفا بالبحرين سميت بأسمه جزيرة البحرين

جـ - عشائر من بني تميم ومنهم حاكم البحرين المنذر بن ساوي .

د - بعض بني الازد . ومن مناطق سكناهم جزيرة اوال . وذكرنا بعد ذلك عشائر اخرى من أصول هندية ومنها الزط او السبيجة وغيرهم .

(٥٧) ومن هؤلاء الخوارج المتعصبون لوجهات نظرهم حول امور الدين وغيرها .

(٥٨) ونقول ايضا : ان هذه المنطقة كانت تهيء للاحقين المها وسائل الاتصال بالعالم الخارجي . ووسائل الفرار امام الاعداء عند الضرورة .

(٥٩) تتعدد الاراء حول هذه النشاة في التاريخ . ولا تجد حاجة لعرضها ومناقشتها في هذه المناسبة .

(٦٠) نقصد بهم الزبيريين والمروانيين المحاربين من اجل السلطة بعد وفاة يزيد بن معاوية .

(٦١) قد يعني هذا العدد عند الخوارج قوة كبرى . اذ كان القليلون هم دون الكثيرين من الغرباء . ويذكر الروايات بهذا الصدد .

(٦٢) كانت هناك خصومات عنيفة في ذلك الوقت بين الأزد وعبد القيس في البحرين فكلما ابدت احداهما جماعة رات الاخرى معادية لها .

(٦٣) لقد كان مولاه للخوارج في البحرين قويا في ذلك حتى استطاعوا بناء الحجاز بالمقاطعات الاقتصادية . وقيل انهم حاولوا ذلك ثم تراجعوا عنه استجابة لرجاء عبدالله بن عباس .

(٦٤) هو ابوفديك واسمه عبدالله بن ثعلبة . وكان احد بني قيس بن ثعلبة .

(٦٥) استمرت مقاومة هذه القبائل لسلطة الامويين في البحرين مدة تقرب من عشرين سنة .

(٦٦) عرف بعضها باسم الصفرية . وعرف بعضها الاخر باسم الزط . واما العناصر الافريقية فقد اندمجت تحت اسم واحد . وهو الزنج او الافارقة .

(٦٧) يروى المؤرخون قصة عن نشاط العرب في خراسان على عهد الدولة العباسية والمعروف انهم قسموا انفسهم هناك تبعا لاصولهم القبلية . فكانت هناك عناصر من ربيعة ومن اليمن . ومن مضر . ولهم قصة طويلة تتعلق بمنافساتهم الداخلية وبصلاتهم السياسية بالامويين والعباسيين بعدهم

(٦٨) لزم الحجاج بعض المواطنين في البحرين بحرب الخوارج في جبال ايران . وكان من بعض اهدافه ان يبتز هذه المنطقة من كفاءتها الحربية

(٦٩) كان للخوارج في البحرين فصة طويلة المحنا لبعض معالمها في صفحات سابقة .

(٧٠) من المفهوم الان ان العناصر التي خدمت العباسيين في البداية كانت من العرب والفرس معا . واذا

كانت الدعاية قد نجحت في الاعلان عن وجود قائد فارسي واحد كامنه كان صانع الملوك في عهده . فلقد تاكد من التاريخ وجود كبير من القواد الحرب الذين اسمهموا بجدهم معه

(٧١) من هذه الوجود انهم سوف يرثون الأرض . وكل ثروة الاغنياء معها

(٧٢) دخل الزنج البحرين سنة ٢٤٩ هـ ووسعوا بها مناطق نفوذهم في جنوبي العراق ثم هزمهم العباسيون بقيادة الموفق بعد حرب استمرت اربع عشرة سنة . وشاركت البحرين في هزيمتهم الاخيرة في معركة المختارة سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٢ م .

(٧٣) كان القرامطة يعرفون الاحداث الجارية في المناطق البعيدة قبل غيرهم بواسطة الحمام الزاجل . فكانوا يخبرون الناس بها . فيعتقد الكثيرون انهم يعلمون الغيب او تتكشف لهم اسرار الدنيا

(٧٤) حاول القرامطة ان يضموا اليهم جميعتهم السرية جماعات كثيرة لها أهواء مختلفة . فكان من هذه الجماعات من يرون في الأديان قيودا للبشرية . وكان منها المتعصبون ضد الدولة . والراغبون عن كل ما تعلمه من أفكار أو قيم .

(٧٥) من الدول التي اسرعت بالاستقلال في المغرب العربي دولة الرستميين الخوارج في تاهرت سنة ١٦٠ هـ . ودولة الادارسة العلويين في فاس سنة ١٧٢ هـ . ودولة الأغالبة في العيلسية بتونس سنة ١٨٢ هـ .

(٧٦) يقول زعيم القرامطة في رسالته الى الخليفة المعتضد العباسي :
« يا هذا لم تخرق هيبتك . وتقتل رجالك . . . وانما انا رجل في فلاة . . . وقد رضيت لنفسي بخشونة العيش . وانظر فاني ما اغتصبتك بلدا كان في يدك . ولا ازلت سلطانك عن عمل جليل » .

(٧٧) اتسع القرامطة جماعة كثيرة من البدو العرب . والاكراد . والنبط . والهنود والافارقة . وطوائف اخرى من اجناس مجهولة

(٧٨) لا تعرف الحالة الصحيحة لهذه الحركة . فجعلها جماعة اراء غامضة وغير مفهومة ولعل القضية فيها في جامعة لدراسات مثانية وموضوعية من جديد كي تعرف الحقيقة او بعضها .

(٧٩) فلقد دعوة العباسيين سرية لفترة تقترب من ثمان وعشرين سنة وكانت لها تنظيماتها ومبادئها ومراقبوها وعلنها خلال تلك الفترة .

(٨٠) عرف عن قادة الجيش العباسي الأتراك بأنهم كانوا رجال حرب فقط . لا يعرفون السياسة او الدين او شئون المال او غيرها . وقيل ان احدهم شاهد من كانوا يعذبون في قضية خلق القرآن المشهورة في عهد الخليفة المعتصم فقال انه لا يعرف من الدين الا ان هذا الخليفة اتى عبر رسول الله .

(٨١) رفض القرامطة الاعتراف بالتفسير السائد لآيات القرآن الكريم . وقالوا ان تفسير القرآن من اختصاص الامام وحده .

(٨٢) اما نساء القرامطة فكانت حرمتهن مصانة . وعرف انهم كانوا يدعون للزواج بواحدة فقط .

(٨٣) ومن ذلك تاليه البشر . والكفر بالدين . وشيوعية النساء .

(٨٤) عرفت بعض مظاهر المغالبة داخل المجتمعات القرمطية . مثل الاخذ بيد الضعيف . والعدل بين الناس . والاستجابة لرأي ذوي الرأي . والتواضع للرفاق . واحترام الرؤساء .

(٨٥) عرف القرامطة بعض الملكيات العامة في الأرض وحدها . فقيل ان ثلاثين الفا كانوا يفلحون الأرض لحساب الدولة .

(٨٦) يقال الكثير عن مؤلفات داعيتهم عبدان . فكانت تنسب له مؤلفات غيره لشهرته ولقد ضاعت كتبه مع الزمن او بسبب القتن .

(٨٧) نسب الكثيرون من الدارسين والمتعديين للقرامطة وهم ليسوا منهم .

(٨٨) وقيل رحالة زار جزيرة القرامطة ان لهم بكل منهن القرامطة مسجد واحد .

(٨٩) ثروي في التاريخ قصة مؤسسة عن اساءة شاب قرمطي لأمه . وليس معروفا ما اذا كانت هذه القصة تعتمل اتخاذا عاما شاع بين القرامطة او كانت حالة خاصة ترتبط بظروفها .

(٩٠) ولقد تعتبر مثل هذه الأمور ـ في نظر هذه الجماعة ـ من مظاهر الضعف المرفوض .

(٩١) عرف عن حمدان قرمط . . وهو واحد من قادة هذه الجماعة ـ ان اخلاصه للقضية المذهبية كان فوق الشبهات . ولكنه ـ وحده ـ يمثل مثل هذه الزكية .

(٩٢) ينصح احد رؤساء القرامطة رجاله بالتواضع مع المرءوسين وبالا يكثروا من الزواج خوفا على صحة ابدانهم والا يشربوا الخمر من اجل تحقيق الانضباط .

(٩٣) واصبح ورد الدين ملغيا . وتوجيهاته بدون رعاية .

(٩٤) يبدو ان شيوعية النساء ـ التي يتهم بها القرامطة ـ لم تكن اتجاها عاما يمكن ادراكه والشعور به

(٩٥) يقول احمد امين القرامطة ان مخدومه كان يفقد عقله في سكره . وانه ـ في بعض ثوراته ـ كان يطعن في قادة المسلمين حتى المعروفين منهم بالكفاءة والتقوى ومن بينهم الخلفاء الراشدون انفسهم .

ويقول انه كان يطلب منه عند صحوه الا يذكر ذلك لأحد .

(٩٦) لم يحاول القرامطة السعي نحو النظور . بقدر ما انحصرت اهدافهم في الثبات امام العواصف ومقاومة الاعداء من حولهم

(٩٧) تكون جيش القرامطة من جنود محترفين وكانوا ينشئون ليكونوا اقوام هذا الجيش واما في الحالات الطارئة فعلى الجميع ان يدافعوا عن انفسهم .

(٩٨) لقد أباح هذا لاتباعه النهب والاعتداء على الحرمات فكانوا معه على الطريق نحو الشر والفساد .

(٩٩) المعروف ان النهب ـ ومغانم الغارات ـ كان من مصادر الدخل عند القرامطة .

(١٠٠) اقام القرامطة دولة لأنفسهم . وعاشوا لأنفسهم منعزلين عن الناس . وكان من الممكن ان يستمروا لفترات اطول لولا ظهور عوامل الهزيمة من داخلهم ومن خارج مجتمعاتهم ايضا .

(١٠١) من اشهر من زاروا القرامطة ناصري خسرو سنة ٤٤٣ هـ وقال عنهم انهم كانوا ينشدون عدالة الاسلام ولا يريدون هدم شريعته . غير انه يتهم في هذه الشهادة لانه كان يلتقي معهم عند بعض المفاهيم الدينية الخاطئة .

(١٠٢) يقول ابن المقرب الشاعر . وما بنوا مسجدا الا تعرفه . بل كلما وجدوه قائما هدموا ولكن الحقيقة لا يمكن ادراكها عند شاعر خمسر . بجاول اثارة التهم وتضخيم الأخطاء .

(١٠٣) وكان معلم الحوم الخمير والكلاب والقطط

(١٠٤) كانت هذه طريقة التتار مع اعدائهم . فكانوا يكسبون بالخوف اكثر مما كانوا يحققون بالشجاعة فقد كانت رواية ابن الأثير صحيحة ـ فلا شك انها مفزعة ومحزنة فهو يقول ان رجلا من التتار انتصر على عشر رجال من خصومه المسلمين . عندما قابلهم وهو أعزل فاهرهم بالتنظارة حتى يأتي بسلاحه ليقتلهم فاستجابوا له خوفا منه . وما قال انهم لاصحابه انهم يستطيعون قتله دون ان يعلم به احد . لم يرد عليه واحد منهم .

(١٠٥) يقال ان الاجماع على الطعن في القرامطة دليل على الشك فيما ينسب اليهم . ويقال ايضا انه دليل على اليقين بصدره . وربما كانت الحقيقة في جانب آخر وهي ان الأمور كانت غامضة حول هؤلاء الناس حتى في عصرهم . ولقد زادت الخصومات من اعدائهم . ولم يجدوا من يبينهم من يدافع عنهم . فاستمر الناس يجتهدون فيما ينسب اليهم . ولا يعرف من هو الأقرب للصواب منهم حتى اليوم . الا ان نقول ان الاجماع على شيء ما في شيء يؤدي الى الاعتقاد فيه .

(١٠٦) ربما كانت رغبة الخوارج في رضا الناس عنهم اقل بكثير منها عند غيرهم

(١٠٧) كان الكثير من الاراضي الزراعية ـ في العهود العباسية المتاخرة ـ يمنح اقطاعات لرؤساء الجنود الاتراك . وعرف ان اغنياء التجار كانوا يشترون بعض اراضي الدولة لتجد رواتب جيشها . وكان هؤلاء واولئك يستخرون الصبيد والعبيد والفلاحين في زراعة اراضيهم . واما الفلاحون الصغار فكانوا يمتحون اراضيهم للقادرين على حمايتها من الضرائب الحكومية .

(١٠٨) وقد القرامطة في دولتهم عند الامام محمد بن اسماعيل بن جعفر . ورفضوا الاعتراف باي امام بعده . واما الاسماعيلية فكانوا يوالون سلسلة من الأئمة تنتسب للامام اسماعيل بن جعفر ومنهم ائمة الفاطميين من نسل عبدالله بن ميمون القداح .

(١٠٩) لقد استطاع انصار الفاطميين في بغداد ان يدعوا للخليفة المستنصر باش الفاطمي من فوق المنابر . ولكنها سيطرة لم تستمر طويلا عاجزة بقصوة التاييد الشعبي والقبول العام .

(١١٠) كان ابو سعيد الجنابي وابنه ابو طاهر من اصدق القرامطة ولاء للفاطميين في البحرين . ثم ضعف هذا الولاء بعدهما في العهد الحسن الاعصم . فقبل ان هواه كان مع خصومهم من بني العباس . ولقد تسبب التذبذب في الولاء لهؤلاء واولئك في حرب خاضها القرامطة ضد الطرفين

(١١١) استغل العباسيون فيما قبول الشعوذة فارسلوا لهم منجما ماهرا نجح في افساد العلاقات بينهم . فاختصموا . وسلبت بينهم الشيوعية والريب .

(١١٢) عرف القرامطة في البحرين ولهؤلاء شهرة في التاريخ لنجاحهم في اقامة دولة باسمهم في هذه المنطقة ـ وفي العراق . وفي الشام . واليمن . ولم يكن بينهم وحدة عسكرية او عضوية .

(١١٣) اشتعلت الحرب بين القرامطة بعد ان قطع الفاطميون بعثة ٣٦٠ / ٩٧١ عن القرامطة الهيئات السنية التي كانت ترسل اليهم من مصر في عهد الاخشيديين .

(١١٤) اسمه جعفر بن فلاح وقيل ان رجلهم الثاني بعد قائدهم الشهير جوهر الصقلي .

(١١٥) تتالف هذه الرسالة من عشر صفحات . ويشبهها في الطول رسالة اخرى ارسلها ابو الهيلول حاكم جزيرة اوال الى صاحب ديوان الخلافة العباسية . بعد ان هزم القرامطة بتلك الجزيرة سنة ٣٧٨ / ٩٨٨م

(١١٦) وصف القرامطة رسالة المغربانها . كثر تفصيلها وقل تحصيلها .

(١١٧) لا يعرف الكثير عن قادة الرعيم القرمطي . وتختلف الروايات حول مهنته قبل شهرته واذا كان ينتمي من اصول فارسية فانه كان مع ذلك عربي الثقافة والموطن .

(١١٨) كان القرامطة جميعا يعملون موجدان من يخدم قضية عادلة .

(١١٩) عرف الكثير من دور الهجرة القرمطية في البحرين . وقرب الكوفة . وفي اليمن . وفي الموقفية بجوار البصرة وفي اماكن اخرى . وكانت تعني دار الحكومة ومسكن الداعي .

(١٢٠) قيل انه قتل الكثير من افراد هذا الجيش ثم حرق اجسادهم . وابقى قائده الغتوي ليحمل له رسالة

الى الخليفة العباسي المعتضد بالله .

(١٢١) يقول أبو طاهر للحجاج : ما بال رءوسكم اذا سنوا لها سننا من الإباطيل لم يزلها الا طغين السيوف .

(١٢٢) وربما حدث الأمران معا في وقت واحد .

(١٢٣) يسرف بعض المؤرخين في تقدير هذه الغنائم فيقال انها كانت محملة على مائة ألف راحلة .

(١٢٤) حكم البويهيون في بغداد في هذه السنوات ٣٣٤ ـ ٤٤٧ هـ .

(١٢٥) وكان منها اقتسام الفائدة من ضرائب الحج وتجارة الخليج ، والطرق التجارية الاخرى والمعروف أن القرامطة اغدقوا على البحرين من ثروات العراق وسوريا وعمان ومصر ومكة .

(١٢٦) كان القرامطة يقولون دائما : اخذنا الحجر بامر ، ونرده بامر ، وكان تفاهما سريا قبله الطرفان بخصوص هذا الحجر ، لاتفاق المصالح بينهما .

(١٢٧) لم يتردد القرامطة في الدخول في اتفاقات اقتصادية لاقتسام الأرباح مع اى طرف من الأطراف .

(١٢٨) لما افتقر القرامطة للتاييد الشعبي ولما عجزوا عن اقناع الكثيرين بتعقيدات مذهبهم زاحموا الفاطميين في التسلط على املاك الدولة العباسية ، ولم يكن بين الجماعتين تخطيط هادف لاسقاط هذه الدولة .

(١٢٩) كانت جزيرة أوال احدى محطات دفع الرسوم الجمركية في عهد القرامطة ، وكانت لهم دخول مالية كثيرة من أهمها الاتاوات والعوائد من الغارات ، وضرائب الأرض ، ورسوم التجارة ، وثمار الحقول والنسب المقررة على الموالين لصاحب الزمان .

(١٣٠) نفي القرامطة أولاد مؤسس دولتهم ابى سعيد الجنابي الى جزيرة أوال بعد هزيمتهم أمام الفاطميين وبعد اختلافهم على أنفسهم .

(١٣١) قامت الدولة العيونية بالأحساء سنة ٤٦٦ هـ .

(١٣٢) يقول ياقوت في معجمه ان اوالا ـ بفتح الهمزة وضمها ـ كان اسما لجزيرة البحرين ، كما كان اسما لصنم بها ونفهم ان يغلب اسم الجزيرة على الصنم وليس العكس كما هو شائع ومعروف .